

الكتاب السادس في سلسلة من أحد عشر كتاباً

حكاية الخلق قبل آدم

السناس والعوالم السابقة في المصادر الشيعية
في ضوء القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام



تأليف

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

تاريخ التأليف: ٢ تموز ٢٠٢٣ م — ١٤ ذي الحجة ١٤٤٤ هـ

المراجعة والتحديث: ١٧ أبريل ٢٠٢٦ م — ٢٩ شوال ١٤٤٧ هـ

ISBN: 978-1-7642390-8-0



9

781764

239080

حكاية الخلق قبل آدم

السناس والعوالم السابقة في المصادر الشيعية

في ضوء القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام

الكتاب السادس في سلسلة من أحد عشر كتاباً

تأليف

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

تاريخ التأليف: ١٤ ذي الحجة ١٤٤٤ هـ - ٢ تموز ٢٠٢٣ م

تاريخ المراجعة والتحديث: ١٧ / ٤ / ٢٠٢٦ م - ٢٩ شوال ١٤٤٧ هـ

ISBN: 978-1-7642390-8-0

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	٥
الشكر والتقدير	٦
كلمة المؤلف: لماذا حكاية الخلق قبل آدم؟	٧
موضع الكتاب في السلسلة	٩
المقدمة: الأرض قبل حكايتنا	١٠
منهج الكتاب ودليل قراءته	١٢
الباب الأول: كيف نقرأ حكاية الأرض قبل آدم؟	١٣
الفصل الأول: قبل آدم عليه السلام — سؤال البداية وحدود المعرفة	١٣
الفصل الثاني: الخلق السابق في ضوء القرآن الكريم	١٥
الفصل الثالث: الإنسان والبشر وآدم والعالم — مفاتيح الألفاظ والمعاني	١٩
الفصل الرابع: من المصادر إلى الروايات — أمانة النقل	٢١
الباب الثاني: أخبار العوالم والخلق السابق	٢٣
الفصل الخامس: هل سبق عالمنا عوالم أخرى؟	٢٣
الفصل السادس: أخبار تعدد آدم — النص والمعنى	٢٥
الفصل السابع: أهل الأرض قبل بني آدم	٢٧
الفصل الثامن: عوالم متعاقبة أم أخبار عن خلق مختلف؟	٢٩
الفصل التاسع: الزمن في أخبار الخلق السابق	٣١
الباب الثالث: حكاية النسناس في المصادر	٣٣
الفصل العاشر: النسناس — حكاية الاسم وتعدد الاستعمالات	٣٣

المحتوى	الصفحة
الفصل الحادي عشر: النسناس في الروايات — طرق النقل ومقابلة الألفاظ	٣٥
الفصل الثاني عشر: ما طبيعة النسناس؟	٣٧
الفصل الثالث عشر: حياتهم على الأرض — بين الخبر والصمت	٣٨
الفصل الرابع عشر: الإدراك والتكليف في أخبار النسناس	٤٠
الفصل الخامس عشر: أخبار الفساد وسفك الدماء	٤٢
الفصل السادس عشر: نهاية النسناس — الزوال وما بعده	٤٣
الباب الرابع: المقارنة والأسئلة المختلف فيها	٤٤
الفصل السابع عشر: هل النسناس هم البشر السابقون؟	٤٤
الفصل الثامن عشر: هل اجتمع الخلق السابق مع بداية عهد آدم؟	٤٦
الفصل التاسع عشر: الأسماء والأشخاص والجماعات	٤٧
الفصل العشرون: النسناس بين الرواية والحكاية الشعبية	٤٨
الفصل الحادي والعشرون: اختلاف الأخبار ونتائج الموازنة	٤٩
الباب الخامس: من الخلق السابق إلى بداية حكايتنا	٥٠
الفصل الثاني والعشرون: الخلق السابق والنياندرتال والبحث العلمي	٥٠
الفصل الثالث والعشرون: بداية عهد آدم عليه السلام	٥٦
الفصل الرابع والعشرون: ماذا تعلمنا من حكاية الخلق قبل آدم؟	٥٧
الخاتمة: ما ثبت وما احتمل وما بقي مفتوحاً	٥٨
الملاحق	٦١
الملحق الأول: الآيات القرآنية المعتمدة	٦١
الملحق الثاني: سجل النصوص الروائية المركزية	٦٣

المحتوى	الصفحة
الملحق الثالث: سجل النقل وحدوده	٦٨
الملحق الرابع: الفروق النصية المؤثرة	٧٠
الملحق الخامس: بطاقة المقارنة بين الأخبار	٧٢
الملحق السادس: معجم المصطلحات	٧٣
الملحق السابع: حدود المادة المنقولة	٧٤
المصادر والمراجع	٧٥
أولاً: القرآن الكريم	٧٥
ثانياً: مصادر الروايات ونقولها	٧٥
ثالثاً: التفسير والرجال واللغة	٧٦
رابعاً: مراجع المقارنة العلمية	٧٧
الفهارس	٧٩
الفهرس الأول: الآيات	٧٩
الفهرس الثاني: الأخبار والروايات	٧٩
الفهرس الثالث: الأعلام	٨٠
الفهرس الرابع: الكتب	٨٠
الفهرس الخامس: المصطلحات	٨١
الفهرس السادس: الموضوعات	٨١
الفهرس السابع: مسائل النقل والمصادر	٨٢
الفهرس الثامن: الملاحق	٨٢

الإهداء

إلى أبي وأمي؛

قبل أن أتعلم السؤال عن أول إنسان، عرفت بكم أول معنى للأمان. وكلما ابتعدت في صفحات الخلق، عاد بي القلب إلى بداية لا أحتاج إلى التنقيب عنها: اسمكما في دعائي، وفضلكما في كل ما أحاول أن أكونه. أهديكما هذا الجهد؛ فبعض الديون لا تؤدي بالكلمات، ولكن الكلمات ترفض أن تنساها.

إلى زوجتي؛

لك في هذا الكتاب مساحة لا يراها من يعدّ فصوله: ما بين السؤال وجوابه، وبين تعب البحث والقدرة على العودة إليه. أهديك صفحاته بما تحمل من محبة وامتنان لشراكة العمر، وأرجو أن يصل إليك من هدوء هذه الكلمات ما يليق بمكانك في قلبي.

إلى ابني وابنتي؛

حين أنظر إلى المستقبل أرى وجوهكم قبل أن أرى السنين. أضع بين أيديكم كتاباً يسأل عن ماض بعيد، وأرجو له أن يعينكم على حياة أقرب: أن تحبوا المعرفة، وأن تصونوا حق السؤال، وأن يكون رجوعكم عن الخطأ علامة شجاعة. لا أطلب منكم أن تروا أجوبتي؛ أحب أن تروا أمانة البحث عنها.

إلى طلابي والشباب الذين يضيئون السؤال؛

لكم نصيب في رجاء هذا العمل. فقد يستطيع سؤال صادق أن يفتح نافذة أغلقها الاعتياد طويلاً. أرجو أن تجدوا هنا لغة تصحب فضولكم، وأن تعرفوا أن التثبت لا يطفئ الدهشة، بل يمنحها أرضاً تقف عليها.

وإلى القارئ الذي يتأمل أثراً غائباً، ثم يحفظ حرمة الإنسان الحاضر؛

أهدي هذه الحكاية عن الذين لا نعرف أسماءهم. عسى أن نتعلم من غياب أصواتهم أن نعدل فيما نقول عنهم، وأن نترك لمن سيقراً آثارنا يوماً كلمة تستحق البقاء.

الشكر والتقدير

لله الحمد، يهبنا من العمر فسحة نتعلم فيها، ومن العقل قدرة نراجع بها ما حسبناه معلوماً. والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، الذين أتوجه إلى هديهم طالباً علماً يصلح النظر والعمل، وقلباً لا يستكبر على الحق إذا ظهر له في كلمة تصحح فهمه.

لهذا الكتاب موضوع بعيد في الزمن، وتعينني على كتابته أيادٍ قريبة لها وجوه وأسماء. وحين أذكر من تعلمت منهم، فإنني أستعيد مواضع في الطريق ما كنت لأعبرها وحدي؛ فالمعرفة التي يحملها اسم واحد على الغلاف تستند إلى عطايا لا يحصيها ذلك الاسم.

أذكر أستاذتي أم دعاء، في درس القرآن الكريم والتربية الإسلامية بالمرحلة الابتدائية. لها في ذاكرتي موضع البدايات التي يظل أثرها أبعد من زمن الدرس. أشكرها شكر تلميذ يعرف أن تقديم الحرف والمعنى إلى طفل عمل قد يمضي صاحبه ولا يعرف إلى أين بلغ أثره.

وأذكر الشيخ عبد الرسول السوداني الناصري، الذي درست على يديه في حوزة النجف الأشرف مدة قصيرة جداً. أحتفظ لهذه التجربة بقدرها الحقيقي، وأحفظ لصاحبها حقه كاملاً؛ فقد يقصر مقام التعلم ويبقى الامتحان طويلاً. أسأل الله أن يبلغه مني الوفاء وأن يجزيه عن تعليمه خيراً.

وللأستاذ كامل، معلم الأحياء في إعدادية الحمزة، ولأستاذتي في قسم صحة المجتمع بالمعهد التقني الطبي في الديوانية، شكري على ما تلقيتيه في مجالس تعليمهم. تلتقي في هذا الكتاب أسئلة النص وأسئلة الطبيعة؛ وأتذكر عند هذا اللقاء أن حسن الإصغاء إلى أهل كل علم باب من أبواب الفهم.

وأدعو بالرحمة لسماحة الشيخ أحمد الوائلي. بقي لأحاديثه أثر في اهتمامي بالمعرفة والدين، وفي تقديري للكلمة التي تجمع وضوح العبارة واحترام السامع. أسأل الله أن يثيبه على ما انتفع الناس به من علمه وبيانه. وأشكر من خدموا النصوص قبل أن تقع في يدي: من حفظ نسخة، وضبط اسماً، وقابل رواية، وأظهر اختلافاً، وصنع فهرساً يقود إلى موضع الشاهد. وأقدر كذلك عمل الباحثين الذين يدرسون الأحافير والطبقات والحمض النووي القديم؛ فما يقدمه كل اختصاص من دليل ينبغي أن يفهم في مجاله وأن ينسب إلى أهله.

ولأبي وأمي، وزوجتي، وابني وابنتي، محبة تمتد وراء هذه الصفحة. ولطلابي ومن أتعلّم من أسألهم رجاء أن يكون الكتاب رفيقاً نافعاً لهم. وأشكر كل قارئ يدلني على سهو أو مصدر أو عبارة تحتاج إلى ضبط؛ فالتصحيح خدمة للكتاب ولمن سيقراه.

أحفظ الفضل لأصحابه، وأتحمل مسؤولية ما أفهمه وأستنتجه وأكتبه. أسأل الله أن يجعل امتناننا عملاً: دقة في النقل، وإنصافاً في الاختلاف، واستعداداً لأن نصلح اليوم ما لم نحسن كتابته بالأمس.

كلمة المؤلف: لماذا حكاية الخلق قبل آدم؟

أحياناً تتسع كلمة واحدة حتى تصير باباً للكتاب. وكلمة «قبل» في عنوان هذه الصفحات تفعل ذلك: قبل آدم عليه السلام؛ أي قبل البداية التي نعرفها من قصة الإنسان، لا قبل كل بداية للوجود. تقف الكلمة على حافة ماض لا تستطيع أعمارنا القصيرة أن تستحضره، ثم تدعونا إلى السؤال عما بلغنا منه. ما الذي كان على الأرض؟ وما الذي تقوله النصوص فعلاً عن أهلها السابقين؟ وكيف صار اسم النسناس مألوفاً على الألسنة، مع أن صورته تتبدل من رواية إلى معجم إلى حكاية؟ ثم ماذا نصنع بما يكشفه علم الإنسان القديم عن النياندرتال وغيره؟ هذه أسئلة يستحق كل منها أن يسمع على حدة، قبل أن نجعلها في جواب واحد.

عملي في هذه الصفحات هو النقل والجمع والترتيب لما تفرق في بطون الكتب، وتقريب مادته إلى القارئ بلغة واضحة. أما أسانيد الروايات وتحقيقها فأعتمد فيها ما قرره العلماء أصحاب المصادر ومحققوها وأهل الاختصاص الذين رجعت إلى أعمالهم، وأنسب أقوالهم إليهم. لا أقدم نفسي محققاً رجالياً مستقلاً، ولا أعيد أعمالهم من بدايتها؛ وإنما أحمل مسؤولية أمانة النقل، وضبط الإحالة، والتمييز بين النص المنقول وما أضيفه من شرح وتأمل.

بدأت كتابة هذه السلسلة سنة ٢٠١٧م، ورغبت أن تتصل كتبها بخيط يستطيع القارئ متابعته: من التأمل في الخلق إلى معرفة الإنسان ومسؤوليته وطريق هدايته. ولكل كتاب سؤاله الذي يستقل به، وموقعه الذي يصل ما قبله بما بعده. أما ترتيبها فهو ترتيب للموضوعات، ولا يدل وحده على ترتيب بداياتها في الوجود أو على تاريخ تأليف كل مادة فيها.

وحملت إلى هذا الكتاب أسئلة الأبناء والطلاب، بما فيها من رغبة طبيعية في أن يصبح الاسم الغريب مفهوماً. للقارئ حق أن يجد شرحاً قريباً، وله حق آخر لا يقل عنه: أن يعرف موضع توقف الدليل. وقد تكون الخدمة الأصدق أن أبين له لماذا بقي السؤال مفتوحاً، وأن أعطيه المصدر الذي يستطيع أن يواصل منه القراءة.

اخترت لفظ «الحكاية» لأنني أحب للمعرفة أن يكون لها اتصال يحفظ القارئ معه أول الطريق وهو يتقدم إلى آخره. وأستعين بالخيال في تقديم هذا الطريق: صورة لسجل ناقص، أو نافذة على زمن بعيد، أو تأمل في اسم نجا من غياب أصحابه. أما الوقائع فلها مصادرهما؛ لا أضيف إلى الخبر مدينة أو حواراً أو شخصاً لم يرد فيه.

وتتجلى خصوصية هذا الكتاب في العناية بما قد يبدو صغيراً: حرف يغيّر معنى نهاية جماعة، واسم راو يغير تقدير طريق، وكلمة «عالم» لا يجوز نقلها مباشرة إلى معنى المجرة أو النوع الحيوي. ومن هذه التفاصيل تتكون الصورة الكبيرة التي أرجو أن أقدمها بأمانة.

أكتب بلسان الباحث عن الفهم، وأحب أن يصحّني القارئ بهذه الصفة. سأبين ما أنقله وما أفسره وما أقترحه، وأجعل باب الاستدراك ظاهراً. فإن خرج من هذه الحكاية بقدرة أفضل على قراءة الخبر وفحص المقارنة، وبدهشة أعمق أمام سعة الخلق، فقد وجد فيها بعض ما أرجوه لها.

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

موضع الكتاب في السلسلة

يأتي هذا الكتاب سادساً في سلسلة من أحد عشر كتاباً. يسبقه «حكاية الكون»، ثم «حكاية النبات»، ثم «حكاية الحيوان»، ثم «حكاية الملائكة»، ثم «حكاية الجن». وتليه كتب «حكاية الإنسان»، و«حكاية الهداية»، و«حكاية الروح»، و«حكاية الجنة»، و«حكاية الخلق الذي لا نعلمه».

هذا ترتيب للقراءة بحسب ترابط الموضوعات، وليس ترتيباً لتواريخ التأليف ولا جدولاً لأزمنة خلق الموجودات. لذلك لا يلزم من تقدم كتاب في السلسلة أن يكون تأليفه أقدم، ولا أن يكون موضوعه سابقاً لكل ما بعده في الوجود.

يضع «حكاية الكون» الإطار الواسع، ويختص كتابا النبات والحيوان بموضوعيهما. أما هنا فأبحث الأخبار المتصلة بالخلق الأرضي السابق لآدم، وفي مقدمتها أخبار النسناس، وأدرس ما يمكن ربطه من روايات العوالم السابقة بهذا النطاق.

يقتصر حضور الملائكة والجن هنا على ما يتصل بسؤال الساقية وبمشهد خلق آدم؛ ومن ذلك التصريح القرآني بخلق الجن من قبل. وتبقى دراسة طبيعتهما وأحوالهما المفصلة في كتابيهما. ويعرض التاريخ الطبيعي والنياندرتال بقدر ما يوضح حدود المقارنة، مع إحالة التوسع في الكون والنبات والحيوان والإنسان إلى مواضعه من السلسلة.

وتقف هذه الحكاية عند بداية عهد آدم عليه السلام. فلا تعيد تفصيل جسده وروحه ومراحل الحياة، ولا تستوعب سير الأنبياء والأوصياء؛ إذ يستقبل «حكاية الإنسان» جانباً من تلك الأسئلة، وتتابع «حكاية الهداية» طريق الرسالة عبر الأجيال.

المقدمة: الأرض قبل حكايتنا

لو كان للأرض أن تفتح لنا صفحاتها دفعة واحدة، لعجزت أعيننا عن متابعة السطور. نرى اليوم حجراً في موضعه، ثم نتعلم أنه كان قاع بحر؛ ونقرأ اسماً في خبر، ثم نكتشف أن ما حوله من صور أكثر مما حملته كلماته. وما بين الأثر والكلمة يمتد ماض لا تصلنا منه إلا شواهد متفرقة، يحمل كل شاهد منها شيئاً من الحكاية ويترك حوله أسئلة.

في طرف من الطريق نص يتناقله الرواة، وفي طرف آخر أثر يحفظه التراب. للكلمة سند ولسان وسياق، وللعظم طبقة وعمر وخصائص يمكن فحصها. ويبدأ الخطأ حين ننقل بطاقة أحدهما إلى الآخر قبل أن نجد دليل الصلة. لا يكفي أن يكون النص قديماً وأن تكون الأحفورة أقدم حتى يصبحا شاهدين على المخلوق نفسه.

ومن هنا جاء هذا الكتاب. إنه يجمع أسئلة عن الخلق قبل آدم عليه السلام، وعن النسناس في الأخبار، وعن العوالم والآدميين الذين ورد ذكرهم في بعض الروايات، ثم يصحب القارئ إلى ما نعرفه علمياً عن بشر قدماء، وفي مقدمتهم إنسان النياندرتال. وقد تجاور هذه الأسئلة بعضها بعضاً من غير أن تتطابق أجوبتها.

نبدأ بالقرآن الكريم. ففيه ذكر خلق الإنسان، والتصريح بسابقة خلق الجن، ومشهد الملائكة عند الإعلان عن خلق آدم، وآيات في السماوات والأرض والماء وتنوع الدواب. وفيه أيضاً ما يعيد الكاتب إلى مسؤوليته عن قوله. أما اسم النسناس، وأعداد العوالم في الأخبار، وأسماء الأنواع الأحفورية الحديثة، فلا نستخرجها من آية لم تسمها.

ثم نقرأ ما ورد في المصادر الحديثة الإمامية، ونميز نص الرواية من شرح العالم وحاشية المحقق. نقرأ خبراً يذكر النسناس، وخبراً عن سبعة عوالم، وآخر عن كثرة الآدميين، وخبراً عن خلق غير مسمى. ونعتمد ما بينه أهل الاختصاص في هذه الأخبار، مع حفظ اختلاف ألفاظها وسياقاتها. ولعل السؤال الأهم هنا: هل نتحدث عن ماض أرضي، أم عن سعة الخلق، أم عن خلق يأتي بعد عالمنا؟

ولفظ النسناس نفسه يحتاج إلى مصاحبة حذرة. فقد يحضر في سياق الخلق السابق، أو في تفسير لغوي، أو في استعمال وصفني لبعض الناس. ولا تصبح أوصاف المعاجم تشريحاً لكائن قديم مجرد أنها اجتمعت تحت كلمة واحدة، كما لا يجوز تحويل تعبير تقويمي إلى تصنيف يسلب بشراً إنسانيتهم.

وعندما نصل إلى النياندرتال، نكون أمام ملف آخر له أدلته: بقايا أجساد وأدوات ومواقع، ومادة وراثية أتاحت دراسة القرابة والتزاوج. يستحق هذا الملف أن يعرض بوضوح واحترام. لن يزداد الخبر الديني ثبوتاً بتسمية كل أحفورة نسانساً، ولن تصبح الأحفورة قادرة على تعيين اسم ديني لمجرد أننا نبحث عنه. سأفصل ما يقوله كل مجال، ثم أبين موضع المقارنة الممكنة.

وأقصد بآدم هنا آدم الذي تنتسب إليه البشرية الحاضرة في الخطاب الديني الذي يدرسه الكتاب. أما «ما قبل التاريخ» فمصطلح علمي يتعلق أساساً بغياب السجلات المكتوبة، وليس مرادفاً لعبارة «قبل آدم». كما لا أضع تاريخاً ميلادياً لآدم من عندي كي أقسم الأنواع القديمة إلى من عاش قبله ومن عاش بعده.

يتدرج الكتاب في خمسة أبواب: أدوات القراءة، وأخبار العوالم السابقة، وحكاية النسانس، والمقارنة بين النصوص والاستعمالات، ثم البحث العلمي والانتقال إلى بداية عهد آدم. وتجمع الملاحق الآيات وشواهد الروايات والفروق وحدود المادة المنقولة، وتعين الفهارس القارئ على العودة إلى مواضع المسائل.

وفي هذا كله أحب أن تبقى الدهشة حية. التثبت لا يختزل سعة الخلق فيما عرفناه؛ إنه يحفظ لنا حق الدهشة بما نعرف، وحق السؤال عما لم نعرف. وقد تكون معرفة سبب اختلاف لفظين، أو معنى بقاء أثر وراثي من جماعة انقرضت، أعمق من صورة عجائبية تستقر في الذهن ثم لا نجد لها أصلاً.

لا يعد هذا الكتاب بإحصاء كل ما خلق الله، ولا باستيعاب جميع ما في خزائن التراث والعلم من أخبار وآثار. غايته أن يقدم مادة واسعة منظمة في نطاق موضوعه، وأن يجعل مواضع الاستدراك قابلة للتعيين. فاكتمال بناء الكتاب لا يعني انغلاق البحث الذي يخدمه.

فلنبداً من الشاهد الذي نستطيع أن نقرأه. نفتح النص، ونصغي إلى ألفاظه، وننظر في الأثر وأدوات دراسته، ثم نعطي كل نتيجة قدرها. وما بقي من الصفحة بياضاً نتركه واضحاً؛ ليجد القارئ بعدنا موضعاً يضيف فيه معرفة، لا موضعاً يفكك فيه وهماً ورثه من ثقتنا الزائدة.

منهج الكتاب ودليل قراءته

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. سورة الإسراء، الآية ٣٦.

أجعل هذه الآية ضابطاً للعمل، لا زينة في مقدمته. فالخبر يُنسب إلى مصدره، وما لم يثبت لا يُعرض بلسان الجزم، والتأمل الشخصي لا يرتدي لباس الرواية.

أقل الآيات كاملة حين أورها نصاً، وأذكر السورة والآية. وأثبت اسم المصدر وموضع الخبر بحسب ما أمكن التحقق منه، دون روابط إلكترونية داخل المتن. تدل الرموز [١م-٨ر] على بطاقات الأخبار في الملحق الثاني، وتدل الرموز [١م-٢٠م] على مراجع التفسير والرجال واللغة والمقارنة العلمية في قائمة المصادر.

وحين أقول «ورد» أو «روي» فأثبت وجود النص في المصدر المسمى. وأعتمد في السند والتحقيق ما نقلته عن العلماء أصحاب المصادر ومحققها وأهل الاختصاص، دون إعادة تحقيق مستقل بعدهم. فما صرحوا بتصحّحه أو تضعيفه أنقله منسوباً إليهم، وأحفظ اختلافهم حيث ورد، ولا أنسب إلى عالم حكماً لم يذكره. ويبقى شرحي وتأملي متميزين من كلامهم.

وأميز بين مصدر الرواية والكتاب الذي جمعها بعده، وبين متن الخبر وهوامش الطبعة. ولا أجعل تكرار النص في كتب متعددة طرقةً مستقلة ما دامت تلك الكتب تنقل من أصل واحد.

تتناول الدراسة الآيات المتصلة مباشرة بالموضوع، وثنائي بطاقات للأخبار المركزية والمقارنة. وتشمل شواهد النسب والعوامل السابقة، وخبر الماء وبدء الخلق، والاستعمال التقويمي للفظ النسب. ويعرض فصل المقارنة العلمية النياندرتال والدينيسوفان وشواهد من تاريخ الحياة والإنسان. يبين الملحق الثالث نطاق فحص المصادر، ويميز ما قبل بصور الطباعات مما قرئ إلكترونياً؛ فلا يفهم من اجتماع هذه المادة استقصاء جميع الروايات أو الأنواع الأحفورية.

بداية كتابة السلسلة هي سنة ٢٠١٧م، ويظل تاريخ التأليف المثبت لهذا الكتاب ٢ تموز ٢٠٢٣م — ١٤ ذي الحجة ١٤٤٤هـ مستقلاً عنها. وتاريخ المراجعة والتحديث المعتمد لهذه النسخة ١٧ / ٤ / ٢٠٢٦م — ٢٩ شوال ١٤٤٧هـ. وتفصل هذه البيانات بين تاريخ الكتاب وتاريخ مشروع السلسلة وبيانات النسخة؛ فلا تنسب الإضافات العلمية اللاحقة إلى سنة ٢٠٢٣م.

الباب الأول: كيف نقرأ حكاية الأرض قبل آدم؟

قد يبدأ الطريق باسم غريب، لكن الوصول إلى معناه يمر بأسئلة مألوفة: من قال؟ وأين ورد القول؟ وماذا تحتمل عبارته؟ في هذا الباب نضع هذه الأسئلة بين أيدينا قبل أن نقرب من أخبار السابقين. نقرأ الآيات المتصلة بالخلق، ونميز الإنسان من آدم، والعالم من الأرض، ووجود الرواية من صحة نسبتها. هكذا تصبح أدوات القراءة رفيقة الحكاية منذ أول خطوة.

الفصل الأول: قبل آدم عليه السلام — سؤال البداية وحدود المعرفة

حين تتعدد البدايات

ليس لكل سؤال عن البداية جواب واحد؛ لأننا قد نسأل عن أشياء مختلفة بالكلمات نفسها. فبداية الأرض غير بداية الحياة عليها، وبداية جماعة من الأحياء غير بداية الإنسان الذي يخاطبه الوحي، وبداية معرفتنا بالشيء غير بداية وجوده.

حين نقول «قبل آدم» لا نكون قد عرفنا تلقائياً عمر الأرض، ولا أسماء من سكنها، ولا عدد العوالم التي سبقتنا. نحن نحدد جهة السؤال، ثم نبحث عن الدليل الذي يستطيع أن يجيب عنه. ومن الخطأ أن نبدأ من عبارة واسعة ثم نحملها التفاصيل التي نرغب في العثور عليها.

ولذلك لا أتعامل مع الجهل ببعض التاريخ كأنه أرض فارغة يباح ملؤها. قد تكون الصفحة خالية عند القارئ، لكنها ليست خالية في الحقيقة من وقائع لا نعرفها. وما يحفظ حق تلك الوقائع أن نمتنع عن اختراعها.

ما الطريق إلى المعرفة؟

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة العنكبوت، الآية ٢٠.

تفتح الآية باب النظر، وتصل البدء بالإعادة وقدرة الله. وهي لا تسمي النسناس ولا تمنحنا قائمة بسكان الأرض السابقين. ولهذا أستفيد منها في تأصيل النظر في الخلق، ولا أجعلها شهادة تفصيلية لرواية لم تذكرها.

أما الأخبار المنسوبة إلى أهل البيت عليهم السلام فتدرس من طريق نقلها ومعناها. وقد يثبت أن كُتُباً قديماً أورد خبراً، ولا يكون قد ثبت بعد أن الخبر صحيح النسبة. كما قد تثبت النسبة، وتظل دلالة بعض الألفاظ محل بحث. هاتان مرحلتان لا تغني إحداهما عن الأخرى.

ويُدرس الأثر المادي بأدوات تناسبه. إن كان السؤال عن عظم قديم، احتجنا إلى معرفة سياق العثور عليه وخصائصه وطرق تقدير عمره؛ وإن كان عن لفظ في رواية، احتجنا إلى مصدره وطرقه ولسانه. وتبدأ المقارنة الصحيحة بعد إنجاز هذين العملين، لا قبل ذلك.

الممكن والمعلوم

يمكن للعقل أن يتصور خلقاً سبقنا، لكن التصور لا يحدد أسماءهم ولا هيئاتهم. ويمكن أن يكون لدينا خبر عنهم، لكن مجرد وجوده لا يجعل كل تفاصيله يقيناً. فبين «لا يمتنع» و«قد وقع» و«عرفنا كيف وقع» درجات ينبغي ألا تختلط.

وكذلك لا يدل عدم العثور على اسم أو تفصيل في المجموعة المدروسة على أنه غير موجود في كل كتاب. لذلك أستخدم العبارة المقيدة: لم يثبت في النصوص التي تناولها هذا البحث. وهي أصدق من نفي شامل لا يحيط صاحبه بجميع المصادر.

سنحتاج إلى هذا التمييز حين نقرأ الأخبار في الباب التالي: قد يجيب خبر عن وجود خلق سابق، ويظل ساكناً عن اسمه أو صفته. عندها نسجل الجواب الذي قدمه، ثم ننتقل إلى السؤال الباقي؛ فلا نرفض فائدته لأنه لم يجب عن كل شيء، ولا نكمله بما لم يقله.

الفصل الثاني: الخلق السابق في ضوء القرآن الكريم

ما الذي تقوله آية الاستخلاف؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة، الآية ٣٠. يرد السؤال عن الفساد وسفك الدماء في سياق جعل خليفة في الأرض. أما اسم النسناس فلا يرد في الآية، ولا يرد فيها عدد سنين عاشوها، ولا وصف أجسادهم. وهذه ملاحظة بسيطة، لكن إغفالها يحول شرحاً روائياً إلى ألفاظ يُظن أنها من القرآن.

وقد توجه بعض الأخبار فهم القارئ إلى خلق سابق. غير أن مصدر تلك الزيادة هو الخبر الذي أوردها. فنقول: ربطت هذه الرواية بين السؤال والخلق السابق، ولا نقول: سمي القرآن ذلك الخلق أو وصفه بالتفاصيل الموجودة في الرواية.

ولفظ الخليفة وحده لا يعين من خلف، ولا يذكر اسم جنس سابق. وتحديد دلالة يحتاج إلى سياق الآيات والتفسير، ولا يصح اختزال مسألة الخلق السابق كلها في المعنى اللغوي المجرد للفعل «خلف». ولا يتناول هذا الموضع طبيعة الملائكة أو تفصيل أحوالهم، إذ نقرأ الآية هنا من جهة اتصالها بالسؤال عن الأرض، ثم نقف عند هذه الجهة.

خلق الجان قبل الإنسان

قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. سورة الحجر، الآية ٢٧.

هذه الآية أوضح اتصالاً بالسابقة من محاولة استخراج أسماء المخلوقات من سؤال الملائكة وحده. فالآية السابقة لها تذكر خلق الإنسان، وتأتي عبارة «من قبل» في مقابلة الخلقين. ويفسر الطباطبائي ذلك بقبلية خلق الجان لخلق الإنسان في هذا السياق. لكنها لا تسمي النسناس، ولا تذكر مقدار الفاصل بالسنين، ولا تجعل كل خلق سابق من الجن. [م ١]

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. سورة الكهف، الآية ٥٠.

إبليس مصرح بانتمائه إلى الجن، وحضور الملائكة في مشهد خلق آدم ظاهر في الآيات. وهذان أصلان في حدود هذا البحث؛ أما تفاصيل رتب الخلق وأزمنة خلق كل صنف فلا تستخرج من مجرد اجتماعه في مشهد السجود. ولا يصح جعل إبليس اسماً لجماعة أحفورية، أو جعل كون النسناس سابقين موجباً لإدخالهم في جنس الجن.

السموات والأرض والماء قبل سؤال السكان

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. سورة هود، الآية ٧.

تربط الآية خلق السموات والأرض بالابتلاء وحسن العمل والبعث. ويأتي ذكر العرش والماء في سياق الخلق، لكنه لا يقدم أسماء سكان الأرض في تلك المراحل. وكذلك تحتاج آيات فصلت ٩-١٢ إلى قراءة في سياق تكوين الأرض وأقواتها والسموات؛ فلا نحول أيام الخلق إلى مدد محسوبة للناس.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة النور، الآية ٤٥.

تدل الآيتان على اتصال الحياة بالماء وتنوع المخلوقات. ولا تقدم طرق المشي في آية النور ترتيباً زمنياً لتحول نوع إلى آخر، ولا تعد قائمة بالأنواع الحيوية في اصطلاح العلم الحديث. ومن ثم نستدل بهما في مجال دلالتها، ونبحث عمر الأرض والأنواع بوسائل العلم التي تعالج تلك المسائل.

سعة الخلق لا تعين هوية كل عالم

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾. سورة الشورى، الآية ٢٩.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. سورة الطلاق، الآية ١٢.

تفتح الآيتان النظر إلى سعة الخلق والإحاطة الإلهية، ولا تسميان كواكب مأهولة بالمعنى الفلكي الحديث أو حضارات يمكن رسمها. والسبع في السموات وما يقابلها من الأرض ليست، بمجرد اشتراك العدد، العوالم السبعة المتعاقبة في خبر آخر. توحيد المعدودين يحتاج إلى قرينة وراء الرقم.

قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة النحل، الآية ٨.

سياق الآية يذكر دواب مألوفة ثم يفتح باب العلم إلى ما لا نعلم. وهذا يسند التواضع في حدود معرفتنا؛ ولا يجوز أن نثبت كل مخلوق تقترحه الحكايات بحجة أن من الخلق ما نجهله.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾. سورة الإنسان، الآية ١. توجه الآية النظر إلى حال الإنسان ووجوده بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً. ولا يحدد لفظ «حين» فيها ملايين السنين أو زمن انقراض نوع أحفوري. وتقرأ مع آيات بدء خلق الإنسان ونسله في السجدة ٧-٩، ومع مشهد خلق آدم في ص ٧١-٧٦، من غير تحويل هذه المواضع إلى جدول لطبقات الأحافير.

الخلق الأول والخلق الجديد

قال تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. سورة ق، الآية ١٥. تقابل الآية بين الخلق الأول والخلق الجديد في سياق الاحتجاج على استبعاد الإعادة. وترد في خبر منسوب إلى الإمام الباقر عليه السلام قراءة تتصل بتجدد العوالم، وسنقرأ الخبر في موضعه [٣]. لكن وجود هذه القراءة الروائية لا يسمح بأن نستخرج من لفظ الآية وحده رقماً للعوالم أو عدداً للآدميين. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. سورة إبراهيم، الآية ٤٨.

موضع الآية مشهد آت، لا تصريح بتاريخ أرض سابقة. وورودها في آخر خبر يتناول عوالم مضت وأخرى تأتي يستلزم المحافظة على اتجاه الزمن في كل جزء من الخبر. فلا نجعل ما يأتي بعد القيامة وصفاً لما كان قبل آدم.

الاستخلاف والتبديل: القدرة غير تعيين الجماعة

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾. سورة الأنعام، الآية ١٣٣.

يفسر الميزان هذا الموضع في سياق غنى الله ورحمته وقدرته على إذهاب خلق والإتيان بغيره. والآية تذكر نشأة المخاطبين من ذرية قوم آخرين، لكنها لا تسمي أولئك القوم نَسَاساً، ولا تصف اختلافاً تشريحياً بينهم وبين ذريتهم. ولفظ «آخرين» وحده لا يحول تعاقب الأجيال إلى انتقال بين أنواع حيوية. هذه حدود أستفيدها من قراءة اللفظ والسياق، مع إبقاء تفصيل تفسيره في موضعه. [م ١]

قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾. سورة الواقعة، الآية ٦٠.

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة الواقعة، الآية ٦١.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾. سورة الواقعة، الآية ٦٢.

تُقرأ هذه الآيات متصلة؛ فالآية الحادية والستون تتم معنى ما قبلها. وهي تستحضر الموت والقدرة على التبديل والإنشاء وتذكر بالنشأة الأولى في سياق الاحتجاج على الإعادة. فلا تحمل عبارة الإنشاء فيما لا نعلم أسماء أنواع قديمة بعينها، ولا تخبر بأن المخاطبين كانوا في حياة سابقة لنسألاً. ومنهج الكتاب أن يحفظ فرقاً بين قدرة الخالق الواسعة وبين معرفة واقعة معينة من وقائع الخلق.

وحدة الأصل لا تساوي نفي كل خلق آخر

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. سورة النساء، الآية ١.

يتجه الخطاب إلى الناس وأصلهم وصلاتهم ومسؤوليتهم. ويفهم الطبائفي في تفسيره الآية في صلة النسل الحاضر بآدم وزوجه، مع مناقشة أخبار أدوار سابقة [م ١]. ولا ينبغي أن تتحول وحدة الأصل في هذا الخطاب إلى ادعاء أن الآية فصلت تاريخ كل حياة سبقت هذا النسل.

تتوزع الآيات، إذن، على مراتب واضحة: سابقة خلق الجان في الحجر، وحضور الملائكة وإبليس عند خلق آدم، وأصول خلق الإنسان ونسله، وسعة الخلق وتنوعه، والإعادة، وأمانة القول. أما اسم النسب وأعداد العوالم السابقة ومددها فتعالج في الأخبار التي وردت بها. ولا يرد في هذه الآيات اسم النياندرتال أو وصف يعينه تعييناً علمياً.

الفصل الثالث: الإنسان والبشر وآدم والعالم — مفاتيح الألفاظ والمعاني

الاسم ليس صورة جاهزة

قد نقرأ كلمة مألوفة في خبر قديم فنظن أننا عرفنا المقصود منها كله. لكن الألفة قد تخفي اختلاف الاستعمال. فلفظ «العالم» قد يستدعي عند القارئ المعاصر كوناً مستقلاً، بينما يحتاج تحديد معناه في رواية بعينها إلى ما قبل الكلمة وما بعدها.

وفي خبر العوالم السبعة يرد ذكر الأرض، ثم إسكان الخلق فيها واحداً بعد واحد [ر٤]. هذه القرائن تجعل للخبر جهة أرضية وتعاقبية. أما خبر «ألف ألف عالم» فصياغته أوسع، ولا يعطينا النص نفسه وصفاً جغرافياً لكل عالم [ر٣]. فلا ننقل تحديد الأول إلى الثاني دون دليل.

وكذلك لا يكون لفظ البشر، في كل سياق ديني، مساوياً تلقائياً لاسم نوع في التصنيف البيولوجي الحديث. السؤال الديني عن النسب والرسالة لا يستعمل بالضرورة حدود المصطلح العلمي الذي يميز أنواعاً بخصائص جسمية ووراثية.

آدم والآدميون

آدم في قصة الإنسان شخصية محددة، لكن خبر تعدد الآدميين يفتح سؤالاً لغوياً ودلالياً آخر: هل يتحدث عن بدايات متعددة تسمى بهذا الاسم؟ وما قدر ما يبينه الخبر من ذلك؟

ليس الجواب أن نحذف ظاهر اللفظ لأنه غير مألوف، ولا أن نملأه بسير ملايين الأشخاص. نقرأ العبارة كما هي، ونعرض إمكانياتها، ثم نقر بأن الأسماء التفصيلية والأنساب وأزمنة كل بداية ليست موجودة في النص الذي بين أيدينا.

والفرق بين قولنا «ورد لفظ آدميين» وقولنا «ثبت تاريخ كل واحد منهم» هو الفرق بين قراءة الوثيقة واختراع ما وراءها. وقد يكون اللفظ أوسع من معرفة القارئ، لكنه لا يمنح الباحث إذناً بزيادة معرفته من غير مصدر.

ألفاظ القرابة والخلق

للنسل والذرية وبني آدم دلالة اتصال لا تثبت بمجرد المشابهة. فإذا ذكر خبر خلقاً ليس من ولد آدم، فهذه العبارة تتعلق بالنسب في الخبر؛ ولا تحدد بمفردها درجة التشابه الجسدي بين ذلك الخلق والإنسان.

وإذا وصف معجم مخلوقاً بأنه يشبه الناس، فالمشابهة لا تقول إنه من ذريتهم. وقد نرى تشابهاً في هيئة مخلوقين مع اختلاف أصلهما، كما قد يتنوع أفراد النسب الواحد في صورهم.

أما الأمة والجماعة والعالم فليست، بمجرد اجتماعها في حديثنا، وحدات متساوية للعد. فلا نقسم عدد العوالم على عدد الآدميين ثم نستخرج مدة أو تعداد سكان. الحساب لا يصلح خطأ التعريف الذي يسبقه.

ولنختبر أثر السياق بمثال من النصوص نفسها: عبارة «ليس هم من ولد آدم» تنفي صلة نسب معينة؛ أما عبارة «واحدًا بعد واحد» فتحدد ترتيباً. لا تقوم إحداها مقام الأخرى. فإذا جمعناهما حصلنا على وصفين داخل خبر واحد، ولم نحصل بعد على اسم ذلك الخلق أو مقدار التشابه بينه وبيننا. بهذه القراءة تتراكم المعاني من ألفاظها، لا من تداعي الصور حولها.

الفصل الرابع: من المصادر إلى الروايات — أمانة النقل

أربع طبقات لا ينبغي خلطها

بين الكتاب الذي نقرأه والقول الذي ننسبه إلى المعصوم طبقات متميزة. أولها المصنف الذي أورد الخبر، وثانيها طريق نقل الخبر، وثالثها ألفاظ متنه، ورابعها الشرح الذي أضافه العلماء أو المحققون. وقد تكون هذه الطبقات متجاوزة في الصفحة، لكنها ليست في درجة واحدة من النسبة.

في «بحار الأنوار» مثلاً نجد الخبر، ثم بيان المجلسي، ثم تعليقات تتبع الطبعة. ومن يقطع الصفحة كلها وينسب ما فيها إلى الإمام قد يدخل تعريفاً لغوياً أو احتمالاً للمحشي في متن الرواية. لهذا سأشير في بحث هيئة النسب إلى موضع النص وموضع البيان كل على حدة [م ٢].

وتتكرر بعض الأخبار في «البرهان» و«بحار الأنوار» نقلاً عن مصدر أقدم. يفيد التكرار في المقابلة وتبع القراءة، لكنه لا يكفي وحده لإثبات تعدد الرواية من طرق مستقلة.

المجموعة الأساسية لهذا الكتاب

أبني البحث الروائي على ثماني بطاقات: خبر النسب بطريق تفسير القمي وبطريق علل الشرائع [١]، [٢]؛ وخبر العوالم والآدميين في التوحيد والخصال [٣]؛ وخبر العوالم السبعة في الخصال والعياشي [٤]؛ وخبر المدد والخلق غير المسمى في العياشي [٥]؛ وخبر اثني عشر ألف عالم في الخصال [٦]؛ وخبر الماء وبدء الخلق في الكافي [٧]؛ وخبر الاستعمال التقوي للنسب في الكافي ونقل البحار [٨]. ليست هذه كلها أخباراً عن جماعة واحدة؛ بعضها أصل في موضوع السابقة، وبعضها للمقارنة وضبط الاستعمال. وتوضح الملاحق ما قبل بصورة مطبوعة وما قرئ إلكترونياً.

وأستعين بتفسير الميزان في مناقشة السؤال عن النسل الحاضر والأدوار السابقة، وبالبرهان والبحار في تتبع النقل والاختلاف، وبالمعجم اللغوي لفهم الاسم لا لإثبات حقيقة المخلوق. وترد في الملاحق الحدود الدقيقة لما قبل مباشرة وما نقل بواسطة.

هذا التحديد يحمي الكتاب من قائمة مراجع طويلة لا يقابلها عمل معلوم. فليس كل كتاب معتبر في تراثنا مصدراً لخبر بعينه، وليس ذكر الكتاب في قائمة عامة دليلاً على أن جميع أبوابه قد فُحصت.

مثال على نقل حكم العلماء

يرد في طريق خبر «ألف ألف عالم» اسم عمرو بن شمر. وفي النص الإلكتروني لرجال النجاشي، ص ٢٨٧، الترجمة ٧٦٥، وصفه بأنه «ضعيف جداً»، ونقل الخوئي هذا الحكم في ترجمته [م ٣]. لذلك

صارت الإحالة هنا إلى موضع الحكم في كتاب النجاشي وإلى ناقله، مع بقاء الفرق بين قراءة النص الإلكتروني ومقابلة صورة الطبعة.

أنقل هذا التضعيف عن صاحبه في حدود الراوي والطريق المعنيين، ولا أحوله إلى حكم مني على كل خبر يتناول الموضوع نفسه. وإيراد الخبر هنا تعريف بما ورد في المصدر، مع بيان ما نقلته عن أهل الاختصاص بشأنه؛ فالجمع لا يقتضي إخفاء أحكامهم، والشرح لا يمنحني صفة المحقق المستقل.

أما في خبر النسناد فتعرض صورة تفسير القمي اسم «عمرو بن مقدم»، ويعرض علل الشرائع ونقل البرهان «عمرو بن أبي المقدام». وقد رجّح الخوئي الصيغة الثانية عند ترجمة ثابت الحذاء، وعين الحذاء بأنه ثابت الحذاء. يشرح الفصل الحادي عشر هذا الترجيح وحدوده؛ ولا ينقل تضعيف عمرو بن شمر إلى راو آخر لاشتراك الاسمين في «عمرو». [م ٣]

دوري في جمع المادة وضبطها

جمعت الشواهد الأساسية من القمي والعلل والخصال والعياشي، وقابلت النقول بمواضعها لتصحيح الإحالات وحفظ الألفاظ. ونقلت عن العلماء ما ورد في المواضع المعتمدة بشأن عمرو بن شمر، وعمرو بن أبي المقدام، وثابت الحذاء، ومحمد بن عبد الله بن هلال، وعيسى بن حمزة، وحكم المجلسي على خبر الناس وأشباههم والنسناد. وهذه مراجعة لأمانة النقل عنهم، تقوم على الاستفادة من تحقيقهم وتبيين أقوالهم، وليست إعادة تحقيق للأسانيد.

يمكن للقارئ أن يرجع إلى الملحق الثاني: لكل خبر رمز، ومصدر معين، وطريق معروض كما يورده المصدر، وملاحظة تبين اختلاف اللفظ أو الحكم المنقول عن العالم. وحين ننتقل إلى الأخبار، سترجع إلى هذه البطاقات بدل إعادة تفصيل بياناتها في كل موضع.

الباب الثاني: أخبار العوالم والخلق السابق

تبدو العوالم البعيدة، حين تسمع أعدادها أول مرة، كأنها أبواب مفتوحة كلها على المشهد نفسه. لكن الاقتراب من النص يكشف أن لكل باب جهة: خبر عن أرض وتعاقب، وآخر عن سعة خلق، وثالث يصل الماضي بما يكون بعد عالمنا. سنقرأ الأخبار واحداً واحداً، ونحفظ ألفاظها وطرقها، ثم نختبر ما يمكن وصله بينها. وما يدهشنا هنا لا يعفينا من السؤال عن الشاهد الذي حمله إلينا.

الفصل الخامس: هل سبق عالمنا عوالم أخرى؟

حين لا تكون حكايتنا كل الحكاية

نقرأ في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق خبراً منسوباً إلى الإمام الباقر عليه السلام يذكر عوالم وآدميين متعددين، ونقرأ في الخصال وتفسير العياشي خبراً آخر يذكر سبعة عالمين سبقوا آدم أبا هذا البشر [٣، ٤]. هذان النصان يمنحان السؤال مادة روائية، لكنهما لا يحولان جميع الاحتمالات إلى حقائق منجزة.

ومن المفيد أن نميز بين ثلاثة أمور: وجود الخبر في المصدر، والمعنى الذي تقوله عبارته، والحكم بثبوته عن الإمام. أضبط الأول بالإحالة إلى موضع النقل، وأشرح الثاني في ضوء السياق وأقوال الشراح، وأعتمد في الثالث أحكام أهل الاختصاص مع نسبتها إليهم. وبهذا يعرف القارئ موضع النقل والشرح والحكم المنقول عن العالم.

الأرض والعالم

في خبر العوالم السبعة توجد عبارة صريحة في اتصال الحديث بالأرض. وفي خبر التوحيد يرد حديث أوسع عن العالم والخلق وتجدد العبادة. لذلك لا أساوي بين سعة الموضوعين، ولا أفترض أن كل عالم مذكور كون منفصل، أو أن جميع العوالم محصورة في هذه الأرض.

واختيار عنوان «العوالم السابقة» لا يثبت وحدة تلك العوالم، بل يجمع الأخبار التي تحتاج إلى المقارنة. وقد يكون بعض ما نتحدث عنه خارج النطاق الأرضي المحدد للكتاب؛ وحين لا يتضح اتصاله بالأرض يبقى حاضراً للمقارنة، لا فصلاً تفصيلياً في كون مجهول.

وهذه نقطة تفرق الكتاب عن حكايات التخمين: لا نرسم لكل عالم سماء ومدناً وبحاراً، ولا ننسب إلى سكانه أجساماً أو أسماء أو شرائع لم يذكرها النص. إن اتساع اللفظ لا يعوض غياب الوصف.

السابق واللاحق

تجمع بعض الأخبار بين خلق مضى وخلق يُذكر بعد مشاهد القيامة. فلا يصح اقتطاع صفة من القسم الأخير وإعادةنها إلى الأول. ومن ذلك وصف خلق لا يكون من فحولة وإناث في سياق المستقبل؛ لا يثبت هذا أن كل خلق سابق كان كذلك.

وهكذا يتحدد موضوع الباب قبل تفصيله: خبر السبعة يصرح بالأرض والتعاقب، وخبر التوحيد يوسع الكلام إلى عوالم وآدميين وتجدد للخلق. سنقرأ الأول من جهة ترتيب ساكني الأرض، والثاني من جهة ألفاظ التعدد وسياقها، ثم نرى ما يمكن أن يجتمع منهما وما يبقى منفصلاً.

خبر اثني عشر ألف عالم: التعدد غير التعاقب

يروى الصدوق في الخصال خبراً عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر اثني عشر ألف عالم. وقد قرأت موضعه في صورة طبعة الحيدرية، النجف، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م، ص ٦٠٢، ح ١٤ من أبواب ما بعد الألف. وفي الطريق عبارة «عمن حدثه»؛ فهي تنقل عن راو لم يسمه هذا السياق، ولا يصح تجاوز ذلك بإطلاق وصف الصحة. [٦]

ويختلف هذا الخبر في وظيفته عن خبر السبعة: فهو يصف سعة عوالم ولا ينص في موضع الشاهد على تعاقبها على أرضنا قبل آدم. لذلك لا أجمع العديدين ولا أضرب أحدهما في الآخر، ولا أجعل هذا الخبر قائمة بأسماء جماعات سابقة. إثبات وجود لفظ التعدد في مصدر شيء، وتعيين موقع كل عالم وزمانه شيء آخر.

أخبار بدء الكون وحدود استعمالها

ومن مواد المقارنة خبر محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام في روضة الكافي، الذي يبدأ بذكر الماء والعرش، ثم يذكر النار والدخان وتكوين السماوات والأرض. قرئ نصه في عرض طبعة دار الحديث، ج ١٥ ص ٢٣٥، ح ١٤٨٨٣/٦٨، مع إحالة الطبعة إلى موضعه المكرر. [٧]

يدخل هذا الخبر في سؤال بدء الخلق، ولا يصف جماعة اسمها النسناس. ولألفاظ الماء والنار والدخان والعرش بحثها التفسيري؛ لا يستبدل بها القارئ أسماء المراحل الكونية الحديثة ثم يعلن أن المطابقة قد تمت. وننتفع به هنا في معرفة اتساع موضوع الروايات، مع إبقاء دراسته التفصيلية في كتاب الكون.

الفصل السادس: أخبار تعدد آدم — النص والمعنى

خبر التوحيد في سياقه

يروى الصدوق في باب «ذكر عظمة الله جل جلاله» من التوحيد، عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن شمر، عن جابر بن يزيد، خبراً عن الإمام الباقر عليه السلام. يبدأ بسؤال عن سورة ق، الآية ١٥، ويتناول تجدد الخلق، ثم يذكر العوالم والآدميين [٣].

وقابلت هذا الطريق بصورة الخصال، طبعة الحيدرية سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٦١٥، الحديث ٥٤ من أبواب ما بعد الألف. تظهر فيها السلسلة نفسها من والد الصدوق إلى جابر، ويتفق موضع الشاهد في العدد. فوجود الخبر في كتابين للمصنف نفسه لا يزيل التحفظ المتعلق بالراوي المشترك، ولا ينشئ من تلقائه طريقين مستقلين.

ومن موضع الشاهد فيه: «بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين». وهو اقتباس من الخبر، لا آية قرآنية ولا حكم يصح أن يفصل عن إسناده. يحمل اللفظ، عند قراءته على ظاهره، معنى تعدد واسع، لكنه لا يسمي الأفراد أو يذكر سيرهم. كما لا يحدد نصيب كل عالم من العدد، ولا كيفية اتصال هذه العوالم أو انفصالها.

ماذا يصنع العدد؟

الألف في الألف يبلغ مليوناً في الحساب، ولكن الانتقال من الحساب إلى التاريخ يحتاج إلى تحديد مدلول المعدود وثبوت الخبر. فلا يكفي أن نحسب لنقول إننا نعرف مليون سيرة أو مليون دورة أرضية متساوية المدة.

والقراءة الحرفية للعدد، أو حمله على بيان الكثرة، احتمالان لا يحسمهما ذوق الكاتب. لا أختار أحدهما لأنه أكثر إثارة أو أسهل توفيقاً مع فكرة سابقة؛ وأقف في النقل عند ما يذكره النص وما وجدته من بيان العلماء له، دون بناء تقويم تاريخي من عندي.

وكذلك لا يذكر الخبر أن جميع أولئك الآدميين هم النسناس. عدم ورود هذه المساواة ليس تفصيلاً صغيراً؛ لأنه يمنع تحويل فصل تعدد آدم إلى مجرد اسم آخر لفصل النسناس.

الطريق ومعنى الاحتياط

في هذا الإسناد عمرو بن شمر، وقد تقدم حكم النجاشي بضعفه ونقل الخوئي له [م ٣]. أورد الخبر كما رواه الصدوق، وأذكر هذا الحكم منسوباً إلى صاحبه. ويظل العدد من مضمون الخبر المنقول؛ فلا أعرضه حقيقة تاريخية قطعية، ولا أنسب إلى العلماء حكماً بوضع ألفاظه لم أنقله عنهم. وفي الوقت نفسه لا أستخرج من ضعف الطريق نفيّاً لكل خلق سابق. فالخبر الآخر الذي يذكر العوالم السبعة له طريق وصياغة يحتاجان إلى بحثهما الخاص. ولا يجوز أن ننقل حكماً بين إسنادين مختلفين دون نظر.

ومما يحفظ قراءة الخبر الانتباه إلى اختلاف نوع الجمل فيه. فذكر تجدد الخلق بعد مصير أهل الجنة والنار جملة تتجه إلى المستقبل، وذكر الآدميين يتجه إلى خلق سابق. لو نقلنا وصف عدم الفحولة والإناث من السياق الأول إلى الثاني لتغير مضمون الرواية في عرضنا، وإن ظلت كل كلمة نقلناها موجودة فيها. أمانة الاقتباس تحتاج، إذن، إلى حفظ موضع العبارة بقدر حاجتها إلى حفظ حروفها.

الفصل السابع: أهل الأرض قبل بني آدم

رواية العوالم السبعة

يرد عن محمد بن مسلم، عن الإمام الباقر عليه السلام، في تفسير العياشي: «لقد خلق الله في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من ولد آدم، خلقهم من أديم الأرض». ويذكر الخبر إسكانهم واحداً بعد واحد، ثم خلق آدم أبا هذا البشر وذريته [٤].

وهذا الموضع أوضح اتصالاً بموضوع الأرض من إطلاق لفظ العالم وحده. ففيه أرض، وخلق سابق، ونفي لانتساب ذلك الخلق إلى ولد آدم، ثم انتقال إلى آدم الذي تتصل به حكايتنا.

لكن الوضوح في هذه الجهة لا يعني استيفاء الجهات الأخرى. لا يذكر موضع الشاهد أسماء العوالم السبعة، ولا أسماء رؤسائها، ولا لغة سكانها، ولا كيف انتهى كل واحد منها. وما لا يرد هنا لا يجوز أن يُستعار من قصة أخرى لمجرد سد الفراغ.

أصل الخلقة وحدود المقارنة

تعبير «أديم الأرض» يتصل بسطحها وما يؤخذ منها في الدلالة اللغوية العامة. لكنه ليس وصفاً مخبرياً للتركيب الخلوي أو الجيني، ولا تقريراً لتصنيف أحفوري. لا نستطيع أن نستخرج من العبارة وحدها هيئة الجمجمة أو طريقة المشي أو عدد الصبغيات.

كما أن نفي كونهم من ولد آدم، في هذه الرواية، يتعلق بهوية النسب المذكورة في النص، لا بحكم أخلاقي على كل فرد ولا بمقدار قدرته على التعلم. ومن هنا يفترق بحث الأصل عن بحث الخصائص.

طريق الخصال وطريق العياشي

قوبل خبر السبعة بصورة الخصال، طبعة الحيدرية، ص ٣٢٨، الحديث ٤٥؛ وفي سنده محمد بن عبد الله بن هلال، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم. وقوبل بصفحة ٢٥٥ من الجزء الثاني من تفسير العياشي، طبعة الأعلمي، الحديث ٥٧، حيث يبدأ النقل بمحمد بن مسلم ولا يعرض طريق المصنف كاملاً إليه. وتذكر مقدمة الطبائبي للجزء الأول، ص ٧، أن المتداول مختصر حذف منه الأسانيد؛ فلا يحمل هذا النقص على شاشة الموقع وحدها. [٤]

ومن دقة القراءة أن نتبع علامة الحاشية إلى موضعها، لا أن نلحقها بأقرب عنوان. ففي العرض الإلكتروني للخصال، ص ٣٥٨، تأتي ملاحظة رجالية على أحمد بن هلال الوارد في الحديث ٤٤، ثم يبدأ خبر العوالم السبعة برقم ٤٥، ويكتمل سنده في الصفحة التالية وفيه محمد بن عبد الله بن هلال.

فلا يجوز نقل الحكم الوارد في تلك الحاشية إلى هذا الراوي لاشتراك الاسمين في «هلال» أو لتجاوز الخبرين. وهذا التنبيه يرفع خلطاً محتملاً، ولا يتضمن بذاته توثيق السند الآخر أو تصحيحه. [٤ر]

وفي الطبعة المصورة من الخصال يظهر السند كاملاً في ص ٣٢٨، ولا أحيل القارئ فيها إلى الحاشية الإلكترونية السابقة ذات الترقيم المختلف. اتفاق رقم الحديث والباب هو الذي يصل الموضوعين مع اختلاف الصفحات.

يذكر الخوئي في ترجمة محمد بن عبد الله بن هلال من معجم رجال الحديث، ج ١٧ ص ٢٦٦-٢٦٧، رقم ١١١٥٣، روايته عن العلاء بن رزين ورواية محمد بن الحسين بن أبي الخطاب عنه، ويذكر وقوعه في كامل الزيارات. أنقل هذه البيانات كما أوردها؛ ولا أنسب إلى هذه الترجمة توثيقاً شخصياً صريحاً لم يرد في النص المعتمد. [٣م]

وفي كامل الزيارات، تحقيق جواد القيومي، ص ٦٣، ح ٤/٤٨، يرد اسم محمد بن عبد الله بن هلال في طريق يروي فيه عن عقبة، ويروي عنه محمد بن الحسين، وبين ابن قولويه وبينه وسائط مسماة. أثبت هذا الموضوع تعريفاً بالمصدر الذي أحال إليه الخوئي، وأفصل بيانات الطريق عن أحكام العلماء في روايته.

ومن كلام الخوئي في توثيق رجال كامل الزيارات جوابه في صراط النجاة، ج ٢ ص ٤٥٧، السؤال ١٤٢٧؛ وفيه يبين أن رأيه الأخير يقصر هذا التوثيق على من يروي عنهم ابن قولويه مباشرة. أنقل رأيه منسوباً إليه، ولا أعرضه بوصفه اتفاقاً بين جميع العلماء. [٣م]

موضع الاعتماد هنا هو ما صرح به العلماء في كتبهم، مع الإحالة إلى كلامهم وحفظ نطقه. لذلك أورد خبر العوالم السبعة من مصدره، وأعرض ما نقلته من بيانات رجاله وآراء أهل الاختصاص ذات الصلة، دون أن أصدر حكماً رجالياً مستقلاً على الطريق. وتبقى هذه الإحالات جزءاً من أمانة الجمع والشرح، ولا أجعل إعادة التحقيق السندي مهمة لهذا الكتاب.

يضيف هذا الخبر إلى بحثنا أمراً محدداً: التعاقب الأرضي المصرح به في عبارته. ويترك أمراً آخر غير معين: اسم كل عالم من السبعة. فإذا انتقلنا إلى خبر النسناس لم نستطع أن نضعه في المرتبة الأولى أو الأخيرة من ذلك التعاقب دون شاهد. هذه هي المسألة التي ستختبرها المقارنة في الفصل التالي.

الفصل الثامن: عوالم متعاقبة أم أخبار عن خلق مختلف؟

لا نبدأ بالدمج

إذا وضعنا أمامنا خبر العوالم السبعة، وخبر العوالم والآدميين الكثيرة، وخبر النسناس، فقد نرغب في جمعها في قصة واحدة: هذه أسماء لمراحل متتابعة، وهذه أعداد لأقسام تلك المراحل. لكن هذا البناء لا يصح لمجرد أنه يريح القارئ.

يجب أولاً أن نسأل: هل نتحدث الأخبار عن المكان نفسه؟ وعن جنس واحد؟ وعن المدة نفسها؟ وهل صرحت بوصل بعضها ببعض؟ ما لم تتبين هذه العناصر، يبقى الجمع احتمالاً، لا نتيجة. ولهذا أتعامل مع «واحدًا بعد واحد» في خبر العوالم السبعة بوصفها علامة تعاقب داخل ذلك الخبر. ولا أجعلها تلقائياً قانوناً يربط كل خبر آخر وجدته في المصادر.

الخلق غير المسمى

في تفسير العياشي خبر عن عيسى بن حمزة، عن سؤال وجه إلى الإمام الصادق عليه السلام حول عمر الدنيا. يرد فيه ذكر خلق سابق لا يسميه النص نسناساً، ويصفه بأنه غير الأصناف المسماة في عبارته، ثم يذكر أزمنة خلو وخلق وفساد [٥هـ].

قوبل هذا الخبر بصورتي ص ٤٩-٥٠ من الجزء الأول من طبعة الأعلي، الحديث ٨. والصورة تثبت ألفاظ المقطع ومدده في هذه الطبعة، لكنها لا تستعيد السند المحذوف من النسخة المتداولة. ويبدأ الموضع بعيسى بن حمزة وهو يحكي سؤال رجل للإمام؛ فلا أبدل هذا العرض بسلسلة اتصال لم يذكرها النص.

ويعرض معجم رجال الحديث، ج ١٤ ص ٢٠٠-٢٠١، الترجمة ٩١٨٦، عيسى بن حمزة المدائني الثقفي، وينقل أن له كتاباً ورواية عن الإمام الصادق عليه السلام. أورد هذا التعريف كما جاء في المعجم، دون أن أضيف إليه حكماً بصحة الخبر أو تفصيلاً عن مصدره لم يذكره النص المنقول. [٣م]

وعدم تسمية هذا الخلق مهم بقدر ورود ذكره. إن عبارة «خلق غير مسمى» تصف حال النص الذي نقرأه؛ ولا تعني أن الاسم سقط منه، ولا أن أصحاب ذلك الخلق لم تكن لهم أسماء. فإذا وضعنا «النسناس» مكان التسمية غير المذكورة كما قد أضفنا تفسيراً يحتاج إلى دليل، ولم نكن قد استعدنا كلمة مفقودة ثبت أنها من الأصل.

كيف نقرأ رأي المفسر؟

ناقش الطباطبائي في تفسير سورة النساء إمكان أدوار إنسانية سابقة، وميز بين حديث النسل الحاضر ومسألة ما قبله [م ١]. أستفيد من هذه المناقشة في إبقاء الاحتمالات منفصلة، لا في جعل كل تقريب يورده المفسر خبراً معصوماً أو نتيجة علمية معاصرة.

وما يعرضه تفسير قديم أو حديث عن العلوم يُقرأ في زمنه، ثم تُراجع المعلومة العلمية بمصادر اختصاصها. احترام المفسر لا يقتضي تجسيد المعرفة عند المعلومات التي كانت متاحة في عصره.

تنتهي المقارنة هنا إلى خريطة أسئلة: لدينا تعاقب مصرح به في خبر، وتعدد واسع في آخر، واسم خلق في ثالث، وخلق غير مسمى في رابع. أما الخط الواحد الذي يضم الجميع فلم يثبت في النصوص المقروءة.

الفصل التاسع: الزمن في أخبار الخلق السابق

لكل عدد سؤال يسبقه

لا يبدأ فهم العدد من جمعه وطرحه، بل من معرفة ما يعده. فسبعة عوالم لا تعني سبعة آلاف سنة، والإخبار عن ألف ألف عالم لا يحدد عمر الأرض. وكذلك فإن عمر جماعة ليس عمر الحياة كلها.

ويذكر خبر النسناس مرور سبعة آلاف سنة في سياق سابق لخلق آدم [١، ٢]. حتى على تقدير ثبوت هذه العبارة، فهي لا تقول إن الكون كله بدأ قبل آدم بهذه المدة، ولا تحدد أعمار الأفراد الذين دخلوا فيها.

وإذا لم نعرف من النص هل المدة تبدأ من أول خلق تلك الجماعة أو من حدث آخر في سياقها، وجب أن نحفظ هذا الاحتمال، وألا نكتب تاريخاً مطلقاً لم يكتبه الخبر.

خبر الخمسين ألفاً

يتناول خبر تفسير العياشي عن عيسى بن حمزة سؤالاً عن قول الناس إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، ويعرض بدلاً منه خمسين ألف عام. وفي صورة ص ٤٩-٥٠ من طبعة الأعلمي، ح ٨، يتوزع سياقه على خمس مدد مقدار كل منها عشرة آلاف عام: خلو أول؛ ثم خلق يصرح النص بأنه ليس من الجن ولا من الملائكة ولا من الإنس؛ ثم خلو بعد زواله؛ ثم خلق الجن؛ ثم عهد آدم. ويذكر النص أن الذي مضى من المدة الأخيرة سبعة آلاف ومئتا عام. هذا عرض لترتيب الأعداد في الشاهد المقروء، وليس اعتماداً لها تقويمياً للأرض. [٥]

يتضح من هذا التفصيل أن اختزال الرواية في عبارة «خلق قبل آدم بخمسين ألف سنة» يفقدها بنيتها؛ فالعدد الإجمالي في هذا العرض يضم عهد آدم نفسه، لا ما قبله وحده. كما أن تقدير مجموع المدد لا يثبت صحة الطريق، ولا يحدد تاريخ صدور القول على تقويم ميلادي. لذلك لا أحسب من الباقي المروي موعداً لنهاية العالم، ولا أخلط هذا السياق بالسبعة آلاف المذكورة في خبر النسناس.

ولا يعالج الإشكال أن نبدل «السنة» بعصر جيولوجي كلما احتجنا إلى التوفيق. هذا تأويل يحتاج إلى قرينة؛ وإلا أصبح بمقدور الكاتب أن يطابق أي عدد مع أي مدة بتغيير وحدة القياس دون دليل.

حدود الجدول الزمني

تجيب العلاقة الزمنية عن سؤال: أي الأمرين أسبق؟ وتجب المدة عن سؤال: كم امتد الحدث؟ أما التاريخ المطلق فيعين موضعه على تقويم معلوم. تقول بعض الأخبار المقروءة إن خلقاً سبق آدم، وتذكر

أخرى مدة في سياق جماعة، لكنها لا تمنحنا وحدها تاريخاً ميلادياً لذلك الحدث. الخلط بين هذه الأسئلة الثلاثة هو الذي يجعل ترتيباً محدوداً يبدو كأنه تقويم كامل.

وتظل مقارنة النقل بالعلم بحثاً في طبيعة الأدلة، لا منافسة بين رقمين معزولين. فالتقدير العلمي يعتمد طرقاً وقرائن قابلة للنقد، والخبر يعتمد النقل والدلالة. وإذا واجهنا تعارضاً ظاهرياً فواجبنا تحديد موضعه قبل اقتراح حله.

خرجنا من هذا الباب بأخبار لها مصادر، وبفروق لا يجوز محوها. وندخل الآن إلى الاسم الأكثر حضوراً في عنوان الكتاب: النسناس، لا لنمنحه ما غاب من أوصاف، وإنما لنعرف ما قيل عنه فعلاً.

الباب الثالث: حكاية النسناس في المصادر

يبقى الاسم أحياناً بعد أن تغيب صورة صاحبه. واسم النسناس بين أيدينا شاهد على صعوبة الانتقال من الكلمة إلى المخلوق: نلقاه في خبر، ثم في معجم، ثم في استعمال يصف بعض الناس. سنصحب هذا الاسم عبر مواضعه، ونسأل عما يقوله كل موضع عن الطبيعة والمعيشة والتكليف والنهاية. وكلما أغرتنا صورة بإكمال المشهد، عدنا إلى النص لنعرف أي جزء منها وصل منه وأي جزء أضافه خيالنا.

الفصل العاشر: النسناس — حكاية الاسم وتعدد الاستعمالات

قبل أن نرسم المخلوق

تسبق الأسماء أحياناً صورها إلى أذهاننا. نسمع «النسناس» فنستحضر هيئة رأيناها في رسم أو حكاية، ثم نعود إلى النص لنبحث عما يثبتها. والأقرب إلى الأمانة أن نعكس الطريق: نبدأ بالمصدر، ثم نرى مقدار الصورة التي يسمح بها.

في مادة «نسس» من لسان العرب تُجمع أقوال مختلفة في اللفظ، منها وصف خلق يشبه الإنسان، ومنها أخبار ذات طابع عجائبي [م٤]. هذه المادة تفيد في معرفة ما قيل بالكلمة، لكنها لا تثبت بنفسها أن كل الأوصاف تحكي عن مخلوق تاريخي واحد.

ومن المهم كذلك ألا يتحول ضبط الكلمة إلى حجة على حقيقة المسمى. قد يختلف الضبط أو تتعدد المعاني، وتبقى المسألة الكبرى: أي استعمال تقصده الرواية التي ندرسها؟

ثلاثة سياقات

أول السياقات سياق الخلق السابق، حيث يأتي الاسم في خبر متصل ببداية آدم. والثاني سياق لغوي يصف ما نُقل عن هيئة مخلوق أو معنى اللفظ. والثالث سياق تشبيه أو ذم لبعض الناس. ولا يصح تحويل استعمال تشبيهي إلى دليل على أن المخاطبين ينتمون إلى جنس غير بشري.

ومن الشواهد التي تعين على الفصل بين الاستعمالات خبر «الناس وأشباه الناس والنسناس». قرأت نصه في روضة الكافي، ج ٨، ح ٣٣٩ في التقسيم الإلكتروني المقروء، وقارنته بنقل بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٩٥-٩٦، باب ٣٥، ح ٢. يحكي الإمام علي بن الحسين عليه السلام سؤال رجل لأمير المؤمنين، وجواب الإمام الحسين عليهما السلام. فالسياق سؤال عن جماعات من الناس وتقويم ديني، لا وصف تشريحي لخلق سبق آدم. ووصف المجلسي هذا الخبر بأنه «مجهول» في مرآة العقول، ج ٢٦ ص ٢١٠،

فلا أقدمه خبراً صحيح السند. ويظل تحليل استعمال الكلمة في النص متميزاً من إثبات صدور الخبر.
[٨٧]

وهذا استعمال ينبغي أن يدرس في سياقه التأويلي؛ لا يثبت أن المشار إليهم جنس حيوي آخر، ولا يجوز اتخاذه مدخلاً لنزع إنسانية جماعة أو مساواتها بكائن منقرض. كما يفصل كلام المجلسي اللاحق ونقله عن أهل اللغة عن متن الخبر؛ فلا تدرج أوصاف المعجم في جواب الإمام. كما أن تداول الاسم لحيوان في عصر لاحق لا يحدد تلقائياً المقصود في خبر قديم. فالأسماء تتحرك بين اللغة العامة والتسمية المحلية والاصطلاح، ولا يكفي اتفاق الحروف لإثبات اتفاق المرجع. التعريف الذي نعتمده

أستخدم «النسناد» في فصول الروايات للدلالة على الخلق الذي تسميه أخبار هذا الباب بهذا الاسم، دون زيادة تعريف بيولوجي لم تثبته. وإذا انتقلت إلى المعاجم أو الحكايات قلت ذلك صراحة. هذا التعريف متواضع، لكنه يمنع اختلاط ثلاث صور: مخلوق مذكور في خبر، وكائن منقول في كتب اللغة، وحيوان أو تشبيه في استعمال متأخر. ومع هذا الفصل يمكن متابعة النص بدل متابعة صورة سبقت إليه.

الفصل الحادي عشر: النسب في الروايات — طرق النقل ومقابلة الألفاظ

طريق تفسير القمي

يرد الخبر في تفسير القمي، ج ١ ص ٣٦-٣٧ من طبعة مكتبة الهدى، وفيه الحسن بن محبوب، ثم اسم معروض بصيغة «عمرو بن مقدم»، ثم ثابت الحذاء وجابر بن يزيد الجعفي، عن الإمام الباقر عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام. وفي نقل البرهان يظهر الاسم بصيغة «عمرو بن أبي المقدام». أثبت الصيغتين كما وردتا في الموضعين، وأفصل ضبط الاسم عن الحكم على صاحبه. [١١]

وللاسم أصل رجالي واضح: ترجم النجاشي لعمرو بن أبي المقدام في ص ٢٩٠، رقم ٧٧٧، وذكر أن أبا المقدام هو ثابت بن هرمز الحداد، وأن لعمرو كتاباً. لكن هذه الترجمة لا تحمل لفظ توثيق صريحاً لعمرو؛ فلا تنسب إليها زيادة ليست فيها. [٣م]

وفي ترجمة ثابت الحذاء من معجم رجال الحديث، ج ٤ ص ٣٠٧، رقم ١٩٨٣، يذكر الخوئي روايته عن جابر ورواية عمرو عنه في تفسير القمي، ويرجح أن الصواب «عمرو بن أبي المقدام»، مستنداً إلى الطبعة القديمة، ويعد ثابت الحذاء هو ثابت الحداد. أعتمد هذا الترجيح منسوباً إلى الخوئي، مع حفظ لفظ الطبعة التي نقلت منها كما هو. [٣م]

ويحكم الخوئي في ترجمة عمرو بن أبي المقدام، ج ١٤ ص ٨٠-٨٣، رقم ٨٨٦٣، بوثاقة عمرو بن ثابت أبي المقدام. ثم يضعف طريق الصدوق إليه المار بالحكم بن مسكين، لعدم ورود توثيق للحكم عنده. يجب تمييز الحكمين: الأول في الراوي، والثاني في طريق معين إليه. وليس الحكم بن مسكين في طريقي خبر النسب المعروضين هنا؛ فلا يستعار تضعيف ذلك الطريق للحكم عليهما، كما لا تكفي وثاقة عمرو وحده لتصحيح جميع رجالهما. [٣م]

وفي بداية الخبر ذكر مدة سابقة لخلق آدم اجتمع فيها ذكر النسب مع خلق آخر. ثم ينتقل إلى وصف الفساد، وإلى إعلان جعل خليفة، وإلى ذكر ما سيكون من ذرية الخلق الجديد. ونقتصر هنا على ما يخص موضوعنا، ولا ننقل الفقرات المشتركة لإعادة أبواب الملائكة والجن.

الخبر موجود كذلك في نقول المجلسي، ومنها الموضع المشار إليه في الجزء الستين، ص ٢٧٣. لكن نقل المجلسي له من القمي لا يصنع طريقاً ثالثاً مستقلاً عن القمي؛ إنما يقدم شاهداً للمقابلة وتتبع اللفظ.

طريق علل الشرائع

يرد الخبر في علل الشرائع، الباب ٩٦، الحديث الأول، بطريق يبدأ بمحمد بن الحسن، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن

جابر، عن الإمام الباقر، قال: قال أمير المؤمنين عليهما السلام. قبل هذا الموضع بصفحة ١٣٩ من الطبعة الثانية المصححة والمعلق عليها من السيد فضل الله الطباطبائي اليزدي، وقورنت عباراته بنقل البحار. [٢]

يظهر ثابت الخذاء في السند المطبوع من تفسير القمي، ولا يرد اسمه في السند المطبوع من علل الشرائع المعتمد هنا. أثبت هذا الفرق كما تعرضه الطبعتان، وأنقل بيان الخوئي للأسماء في موضعه. ولا أضيف من عندي تفسيراً لمنشأ الاختلاف أو حكماً باستقلال الطريقتين؛ فقصدني حفظ النقل وبيان ما أورده أهل الاختصاص.

والمقصود من عرض الطريقتين أن القارئ لا يسمع عبارة «ورد في كتابين» مجردة من معناها. فقدر استقلال النقل، وموضع الالتقاء بين السلسلتين، وأثر اختلاف الألفاظ، كلها أمور تدخل في التقويم.

اختلاف كلمة يغير مقدار النتيجة

في صورة صفحة ٣٧ من تفسير القمي وردت عبارة «وأيد النسناس من أرضي»، وفي صورة صفحة ١٤١ من علل الشرائع وردت «وأين النسناس من أرضي فأطهرها منهم». ويعرض البرهان «وأين النسناس عن أرضي»، مع تنبيه حاشيته إلى «وأيد» في المصدر. [١، ٢]

الفرق مؤثر؛ فالفصل أو الإبعاد ليسا مطابقين في كل دلالة للإهلاك. أحفظ هنا لفظ كل طبعة وما ورد فيها من شرح، دون أن أرجح من عندي أي اللفظين هو الأصل. لذلك لا أجعل اختيار القراءة الأشد أساساً لرسم مشهد فناء شامل.

نسبة القول وقرآته

تعايير الخلق واليد الواردة في الخبر تُقرأ في إطار تنزيه الله عن الجسم والأعضاء، ولا تتحول العبارة إلى وصف حسي للخالق. هذا الضابط لا يختص بالنسناس، لكنه يحفظ قراءة الخبر من إسقاط صورة المخلوق على خالقه.

تجمع هذه الصفحات أحكاماً رجالية محددة منسوبة إلى أصحابها، ولا تنشئ حكماً مستقلاً على الطريقتين. لذلك أميز بين «بروي المصدر» وبين «صح العالم» أو «ضعف»، وأعرض كل عبارة بحسب صاحبها ومحله. أما التفاصيل التاريخية فأشرح ما ورد منها في الخبر، دون توسيعها إلى ما لم يذكره النص أو الشرح المعتمد.

الفصل الثاني عشر: ما طبيعة النسناس؟

ما لا يقوله الخبر الأساسي

لا يعرض موضع الشاهد من خبر النسناس تشريحاً لأجسادهم. لا يذكر عدد العظام، ولا طول القامة، ولا حجم الدماغ، ولا يحدد بنية العين والأطراف. ولذلك لا يصح أن يقدم الكاتب رسماً تفصيلياً ثم يقول إنه رسم مستمد من الرواية الأساسية.

فمن أين جاءت صور العين الواحدة واليد الواحدة والرجل الواحدة؟ توجد أمثال هذه الأوصاف في المادة اللغوية وفي بعض الشروح والنقول عن كتب الغريب. ومكانها مهم بقدر محتواها؛ فهي ليست تلقائياً جزءاً من الخبر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

المتن والبيان والهامش

في بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٠٦، يقع بعد نقل الخبر «بيان» يتناول ألفاظاً، ومنها النسناس. وترد في الصفحة أيضاً حاشية تنقل أقوالاً من كتب اللغة [م ٢]. فإذا نقلنا الوصف وجب أن نقول: جاء في البيان، أو في حاشية الطبعة، لا أن نضعه بين علامتي اقتباس من كلام الإمام.

وفي البرهان، ج ١، ص ١٧١، تحيل حاشية لفظ النسناس إلى الصحاح والنهاية [ر ١، م ٤]. هذه الإحالة تُظهر أن شرح اللفظ استُعين فيه بالمعجم، ولا تدل على أن الشرح نفسه ورد مسنداً في الرواية. من هنا يمكن أن نفهم كيف تكبر الحكاية: يبدأ النص باسم، وتشرح الحاشية الاسم بصورة منقولة، ثم تُحذف الحدود عند التداول، فيصبح الاسم والصورة خبراً واحداً في ذاكرة الناس.

التشابه لا يثبت الهوية

حتى إذا ثبت وصف بالشبه الإنساني في مصدر لغوي، فالتشابه وحده لا يحدد الأصل أو النسب أو النوع. ولا توجد في المجموعة المدروسة مواصفات تكفي لمطابقة الاسم بفرد أحفوري أو نوع علمي محدد.

والجواب المسؤول عن الهيئة ليس رسماً حاسماً. يمكننا أن نعرض الأوصاف التي تداولتها المصادر مع نسبتها ودرجتها، لكننا لا نملك اعتمادها صورة نهائية للخلق السابق.

ولذلك لا أجعل في هذا الكتاب هيئة متخيلة للنسناس تُعرض بوصفها حقيقة. إن استُخدم رسم تعبيري في إخراج لاحق، وجب أن يعلن طابعه التخيلي، وألا يُستعمل شاهداً على ما لم يثبت النص.

الفصل الثالث عشر: حياتهم على الأرض — بين الخبر والصمت

حياة لا نملك يومياتها

يربط الخبر الأساسي النسناس بالأرض، ويضع ذكرهم قبل آدم. ومن هذه العلاقة يمكن تحديد إطار عام داخل الرواية، لا قرية معينة ولا قارة معروفة ولا مدينة ذات اسم.

وقد يرغب القارئ في معرفة طعامهم، وكيف كانت بيوتهم، وما اللغة التي يتحدثون بها. وهي أسئلة مفهومة؛ لأن الإنسان يقرب المجهول من خلال تفاصيل حياته. غير أن قابلية السؤال للتخيل لا تعني أن الجواب محفوظ في المصدر.

في النصوص الأساسية التي درسناها لا تتوافر مادة تكفي لبناء حياة يومية موثقة للنسناس. فلا أكتب مشهد أسرة تجلس إلى طعام، أو جماعة تبني مسكناً، ثم أترك القارئ يظن أنه يقرأ تاريخاً منقولاً.

الذرية والأعمار

لا تكفي مدة سبعة آلاف سنة المذكورة في الخبر لتحديد عمر الفرد. فقد تكون مدة لجماعة في سياق النص، ولا يلزم أن يكون كل واحد من أفرادها عاشها كاملة. كما لا يصح حساب عدد الأجيال دون معرفة أعمار الإنجاب وطرائق التكاثر وأعداد السكان.

ولا يثبت من الجمع في الاسم وجود نظام أسري يشبه نظام الإنسان الحالي بكل تفاصيله. وجود جماعة شيء، ووصف علاقتها وتكاثرها شيء آخر. كذلك لا يجوز نقل وصف الخلق المستقبلي الوارد في آخر خبر آخر إلى النسناس السابقين.

وحين يتعلق السؤال بالذكور والإناث والبنات والأبناء، فإن غياب الأسماء في النصوص الأساسية ليس مبرراً لاختلافها، ولا دليلاً قاطعاً على نفيها. هذه مسألة باقية في حدود ما لم يبين لنا.

تنقل بعض المواد اللغوية أقوالاً عن وجود مخلوق يسمى النسناس في مناطق لاحقة [م٢، م٤]. ولا يصح أن نستخرج من ذلك خريطة لسكان الأرض قبل آدم. فقد يكون الاسم مستعملاً لشيء آخر، وقد يكون النقل حكاية لا مشاهدة موثقة.

والمثل نفسه يجري على الأدوات والنار واللغة والعمران. لا يحق لنا أن نحمل إنجازات نوع أحفوري على النسناس إلا بعد إثبات الهوية، وهي الحلقة التي لا نملكها هنا.

ولا ينبغي تحويل نقص الأخبار إلى وصف سلبي لأصحابها. عدم معرفتنا بأداة أو لغة أو عمران لا يثبت أنهم كانوا بلا أدوات أو لغة أو عمران؛ كما أنه لا يثبت العكس. بهذه الملاحظة ينفصل وصف حال معرفتنا عن الحكم على حال مخلوقات لا نملك يومياتها.

الفصل الرابع عشر: الإدراك والتكليف في أخبار النسناس

ماذا تعني لغة المسؤولية؟

يحمل الخبر الأساسي ألفاظ المعاصي والفساد وسفك الدماء. وهذه ليست، في سياقها الديني، مجرد أوصاف لحركة جسدية؛ بل لغة تتصل بالفعل ومسؤوليته. لكن الوصول من هذه اللغة إلى بيان تفصيلي لطبيعة التكليف يحتاج إلى خطوات لا يجوز اختصارها.

أعتمد في حكم الخبر على أهل الاختصاص، وأعتني في شرحه بتحديد من تتعلق به الأوصاف؛ فالخبر يذكر أكثر من جماعة. وقد يأتي الوصف في صدره عاماً، ثم تعود بعض الجمل إلى جماعة معينة. وتقتضي أمانة الشرح أن يبقى كل تفصيل في سياقه.

إذا ثبت تعلق وصف المعصية بالنسناس، أمكن أن يُبحث ما يستلزمه من إدراك ومسؤولية على قدر الدلالة. لكنه لا يخبرنا بنفسه عن نص شريعة أو عدد واجبات أو صورة عبادة.

الحجة لا تُملأ بالأسماء

يذكر الخبر في انتقاله إلى الخلق الجديد أنبياء ومرسلين وصالحين وهداة في الذرية. هذا بيان يتعلق بالسياق الجديد في الرواية. ولا يصح نقله إلى الماضي لنصنع منه قائمة أنبياء النسناس.

وأنا أقرأ من داخل المنهج الإمامي الذي يجعل العدل والحجة من أصول النظر إلى التكليف؛ لكن الأصل العقدي العام لا يمنحني اسم نبي سابق أو وصي لم يذكره الدليل. فبين الاعتقاد بأن الله لا يظلم وبين معرفة تفاصيل إقامة الحجّة على خلق بعينه فرق يجب أن يبقى ظاهراً.

لهذا لا أضع أسماء رسل أو أوصياء للنسناس من عندي، ولا أنفيهم بنفي شامل. أقول إن المجموعة الأساسية المقروءة لا تقدم سلسلة أسماء يصح أن نبني بها تاريخ الهداية عندهم.

الإدراك ليس تصنيفاً تشريحيًا

حتى لو سمح الخبر ببحث التكليف، فإن ذلك لا يحدد قياس الدماغ أو اللغة الصوتية أو نوع الأدوات. واستنتاج القدرة الأخلاقية من عبارة دينية ليس الطريق نفسه الذي يستنتج به عالم الآثار استخدام أداة من أثر مادي.

ولا ينبغي أن نقع في الوجه المقابل من الخطأ، فننفي الإدراك لأن صورة شعبية جعلت المخلوق غريب الهيئة. الصورة غير الثابتة لا تصلح أساساً لحكم على العقل والمسؤولية.

الخلاصة أن ألفاظ الخبر تفتح سؤال التكليف، لكنها لا تقدم نظامه كاملاً. وما لا نعرفه عن ذلك النظام لا يبيح اختراعه، كما لا يجوز اتخاذه ذريعة لنفي عدل الله أو حكمته.

الفصل الخامس عشر: أخبار الفساد وسفك الدماء

من الوصف العام إلى الواقعة

قد توجي كلمة الفساد بمعارك كبيرة ومدن مدمرة وملوك طغاة. لكن الكلمة وحدها لا تسرد هذه الأحداث. ولا يذكر الخبر الأساسي أسماء حروب أو أدوات قتال أو تحالفات سياسية للنسناد. والتمييز بين الوصف والواقعة يحفظ للخبر حدوده. يجوز أن نقول إن الرواية تصف فساداً في الأرض، ولا يجوز أن نمنح هذا الفساد وقائع مفصلة لم تُنقل. فالتفسير الأدبي لا يتحول إلى شهادة تاريخية.

الضمائر تصنع فرقاً

في النقل عن القمي يأتي وصف يشمل أهل الأرض المذكورين، ثم يرد في بعض التفصيل ذكر «بني الجان» تحديداً [١٠]. وهذه ملاحظة تجعل عزو كل جملة إلى النسناد وحدهم قراءة غير دقيقة. لا يعني ذلك إخراج النسناد من صدر الخبر، وإنما يعني ألا نلغي ما عينه النص بعد الإجمال. ونسبة الحسد أو نوع من الفعل إلى جماعة تحتاج إلى مراجعة الجملة التي أسندته إليها، لا إلى الاعتماد على عنوان الحكاية المتداول.

وكذلك لا أستنتج من وصف جمع أن كل فرد، في كل زمان، فعل الأمر نفسه. تحديد مدى العموم يحتاج إلى قرينة، وليس من الأمانة أن نملاً سكوت النص بإدانة مطلقة.

العبرة وحدودها

يمكن أن تذكرنا أخبار الفساد، على تقدير ثبوتها، بأن طول الوجود لا يمنح صاحبه حصانة أخلاقية. لكن العبرة لا تصح سنداً، ولا تثبت واقعة لم تُرو. أستطيع أن أتأمل في خطورة الظلم، ولا أستطيع أن أقول إن هذا التأمل دليل على تفاصيل الماضي.

والغاية ليست النظر إلى خلق سابق باستعلاء، كأننا نروي خطأ غيرنا ونخرج من الحساب. إن ما نعرفه يقيناً من حياتنا يكفي ليُجعل سؤال الفساد قريباً من أعمالنا. أما ما نجهله من حياة السابقين فنبقيه في موضع السؤال.

الفصل السادس عشر: نهاية النسناس — الزوال وما بعده

كلمة عند باب النهاية

تظهر قراءة «وأيد» في طبعة تفسير القمي المصورة، ص ٣٧، و«وأين» في طبعة علل الشرائع المصورة، ص ١٤١. وفي حاشية الطبعة الثانية فسرت «وأين» بعبارة «أي أخرجهم»؛ فهذا تفسير من المحشي، وليس كلمة مضافة إلى المتن. كما ورد تفسير بالفصل والإبعاد في حاشية البرهان. [١٠، ٢]

على قراءة الإبادة يكون معنى الإهلاك حاضراً بقوة، وعلى قراءة الإبانة يبرز معنى الفصل والإخراج. وأثبت هنا اختلاف اللفظ في الطبعين المعتمدين، وأذكر شرح الطبعة حيث ورد. أما ترجيح أصل القراءة فلا أقدمه اجتهداً مني؛ إذ غاية هذا الموضع أن يعرف القارئ ما نُقل وأثر اختلافه في الفهم.

كيف انتهى وجودهم؟

لا يقدم موضع الشاهد وصفاً تفصيلياً لآلية الزوال: لا طوفاناً مسمى، ولا نيزكاً، ولا وباءً موصوفاً، ولا حرباً بقيادتها وتاريخها. وكل محاولة لتعيين واحد من هذه الأمور تحتاج إلى دليل مستقل.

كما لا يجوز مطابقة نهاية النسناس بحدث انقراض معروف في تاريخ الحياة، ما لم توجد قرائن تثبت هوية الخلق والزمان والحدث. تشابه فكرة النهاية لا يحقق هذه المطابقة.

وحتى في القراءة التي تفيد الهلاك، تبقى أسئلة المدى والمدة والتفصيل محتاجة إلى دلالة. فلا أضع يوماً واحداً لنهائهم، ولا أسرد موت آخر فرد، ولا أسمى من بقي بعدهم.

هل بقي منهم أحد؟

توجد حكايات لغوية متأخرة عن مخلوقات تحمل الاسم، لكن استعمال الاسم لاحقاً لا يثبت بقاء الخلق المذكور قبل آدم. يلزم أولاً إثبات أن المسمى واحد، ثم صحة خبر البقاء واتصاله.

وبالمثل لا يكون فقدان أخبار لاحقة برهاناً مستقلاً على الفناء الشامل. فعدم الخبر يصف ما وصلنا، لا بالضرورة جميع ما وقع.

وتظهر أهمية هذا الفرق حين نقرأ خبراً متأخراً يحمل الاسم نفسه: ينبغي أولاً أن نسأل عما يقصده الكاتب بالاسم، ثم عن سند حكايته، قبل أن نستخدمها جواباً عن البقاء. بذلك ينتهي الفصل إلى مسألتين مستقلتين، هما قراءة لفظ النهاية، والتحقق من هوية ما يذكر بعدها، بدل جمعهما في خاتمة واحدة مصطنعة.

الباب الرابع: المقارنة والأسئلة المختلف فيها

بعد قراءة الأخبار منفردة نقرب من المسافة بينها. هنا تنشأ أكثر النتائج جاذبية، وهنا يحتاج الكاتب إلى أكبر قدر من التثبت: هل الاسمان لمسمى واحد؟ هل الزمانان متصلان؟ وهل التشابه وصف في المصدر أم صورة صنعها القارئ؟ يجمع هذا الباب أطراف المقارنة، ويختبرها قبل أن يمنحها اسم النتيجة. فحسن وصل الشواهد لا يقل أهمية عن حسن نقل كل شاهد.

الفصل السابع عشر: هل النسناس هم البشر السابقون؟

السؤال الذي يجمع نصوصاً مختلفة

إذا قرأنا خبر النسناس ثم قرأنا خبر العوالم السبعة وخبر الآدميين الكثيرين، فقد يبدو أن الأسماء الثلاثة تشير إلى جماعة واحدة. لكن هذا الانطباع ينشأ من جمع القارئ، لا من تصريح مشترك في الأخبار. فخير النسناس يسمي خلقاً بعينه في سياق سابق لخلق آدم، وخبر السبعة يتحدث عن عوالم ليست من ولد آدم، وخبر التوحيد يستعمل لفظ البشر والآدميين في سياق أوسع. الاشتراك في معنى السبق لا يكفي وحده لإثبات وحدة المسمى.

يمكن أن نعرض المسألة في ثلاث درجات: درجة النص الذي يسمي النسناس، ودرجة النص الذي يذكر خلقاً سابقاً من غير هذه التسمية، ودرجة تفسير العلاقة بينهما. الأولى والثانية من مادة الرواية، أما الثالثة فهي عمل الباحث. وحين لا يرد جسر صريح بينهما، يبقى الربط احتمالاً يحتاج إلى دليل مستقل، لا عنواناً يفرض على جميع النصوص.

ماذا يعني لفظ البشر؟

ليس من المنهج أن ننقل إلى كل استعمال روائي لكلمة البشر تعريف النوع الحيوي الذي تستعمله العلوم الحديثة. كما لا يصح أن نفترض أن كل خلق عاقل أو كل عالم يسكن الأرض هو من نوعنا بالمعنى العلمي. اللفظ يأخذ دلالاته من سياقه، وقد يكون السياق أضيق مما نريده له أو أوسع من التصنيف الذي تعودناه.

ولهذا لا أستطيع أن أكتب: «النسئاس هم جميع البشر السابقين»، ولا أن أكتب نقيضها بوصفه حكماً ثابتاً. الذي أستطيع قوله هو أن الأخبار المعروضة ليست متطابقة الألفاظ والموضوعات، وأنها لا تمنحنا، في حدود ما تحقق هنا، تعريفاً جامعاً مانعاً لسكان الأرض قبل آدم.

ثمرة التمييز

هذا التمييز لا يفرغ البحث من مادته، بل يمنع أن تبني قصة كاملة على كلمة واحدة. ويترك لكل خبر مقدار دلالاته: وجود الاسم حيث ورد، ومعنى التعاقب حيث ذكر، وسعة الخلق حيث كانت هي الغرض. ومن هنا تبدأ المقارنة الصحيحة، لا من افتراض النتيجة قبل قراءة النصوص. [١٠-٥هـ]

الفصل الثامن عشر: هل اجتمع الخلق السابق مع بداية عهد آدم؟

السبق غير المعاصرة

بين القول بأن خلقاً سبق آدم والقول بأنه بقي إلى زمانه مسافة تحتاج إلى نص. فقد يذكر الراوي ترتيب أحداث من غير أن يحدد الفاصل بينها، وقد يذكر إزالة خلق من الأرض من غير أن يشرح مصير كل فرد. لذلك لا تدل كلمة «قبل» بنفسها على انقطاع فوري، ولا على تداخل طويل.

وفي نص النسّاس الذي عرضناه تأتي عبارة الإبانة أو الإبادة ضمن سياق الإعلان عن خلق جديد. هنا ينبغي حفظ ترتيب الكلام كما ورد، لكن لا يجوز استخراج سنوات تداخل أو أعداد ناجين من سكوت النص. اختلاف اللفظ نفسه يوجب التثبت قبل بناء نتيجة تتعلق بالبقاء أو الفناء.

ثلاث مسائل لا مسألة واحدة

السؤال عن المعاصرة يختلف عن السؤال عن اللقاء، وكلاهما يختلف عن السؤال عن التناسل. حتى لو ثبت في خبر معتبر أن جماعتين وجدتا في وقت واحد، فلن يثبت بذلك أنهما التقتا، فضلاً عن ثبوت المصاهرة أو دخول إحدهما في نسب الأخرى. هذه درجات متتابعة من الدعوى، ولكل درجة دليلها.

ولا تقدم النصوص الأساسية التي اعتمدها هذا الكتاب وصفاً موثقاً للقاء شخص معين من ذرية آدم بفرد مسمى من النسّاس. ومن ثم لا يحق لنا أن نملأ الفراغ بحوار أدبي ثم نسوقه بلسان التاريخ. ويمكن للرواية المتخيلة أن تصنع مشهداً كهذا إذا أعلنت طبيعتها، أما بحث المصادر فلا يملك هذا الترخيص.

حدود النتيجة

لا أجزم بمعاصرة النسّاس لآدم اعتماداً على المادة المنقولة هنا، ولا أستخرج من اختلاف ألفاظ نهايتهم تفصيلاً لم يذكره النص. وهذه ليست شهادة باستحالة المعاصرة في ذاتها؛ وإنما هي التزام بحدود ما تعرضه المصادر المعتمدة. أما أصل نسل الإنسان الحاضر فله أدلته وسياقه، ولا يحسمه مجرد ورود اسم سابق في خبر آخر. [١، ٢، ٣؛ م ١]

الفصل التاسع عشر: الأسماء والأشخاص والجماعات

حين لا تحفظ الرواية اسماً

تمنح الأسماء القصة قرباً من النفس، ولذلك يسهل أن يغري غيابها الكاتب باختراعها. لكن أخبارنا المركزية لا تقدم قائمة ملوك للنسناد، ولا أنساباً متصلة، ولا أسماء مدن وعواصم. إنها تتحدث غالباً بعبارات الجماعة أو العالم أو الخلق. وما لا تحفظه هذه النصوص لا يصبح معلوماً لأن السرد يحتاج إليه.

ينبغي كذلك التمييز بين أسماء الرواة وأسماء موضوع الرواية. فجابر ومحمد بن مسلم وعمرو بن أبي المقدام رجال في طريق النقل، وليسوا أشخاصاً عاشوا أحداث العالم السابق. وإدراجهم في فهرس الأعلام لا يعني أنهم جزء من تاريخ النسناد؛ إنما يعني أنهم جزء من تاريخ وصول الخبر إلينا.

الأسماء المتداولة خارج النصوص المركزية

قد يجد القارئ أسماء غريبة في صفحات شعبية أو كتب عجائب. والطريق إلى قبول الاسم لا يبدأ بشهرته، بل بالسؤال: أين أقدم موضع يمكن إثباته له؟ وهل يروى بسند؟ وهل يتحدث ذلك الموضع عن النسناد أصلاً؟ وهل تغير الاسم بتصحيف أو بانتقال بين اللغات؟

ولم أجر في هذا البحث استقصاء شاملاً لكل أسماء كتب العجائب، ولذلك لا أدعي نفي وجودها في التراث كله. إنما امتنعت عن إدخالها في المتن بوصفها تاريخاً ثابتاً، لأن مادته الأساسية لا تسند تلك القوائم، ولأن توسيع البحث إلى تاريخ الأدب العجائبي يحتاج عملاً مستقلاً.

قيمة الفراغ المحفوظ

ولهذا يفصل فهرس الأعلام في آخر الكتاب بين أشخاص وردوا في طرق النقل وبين موضوعات الرواية. يرد جابر ومحمد بن مسلم لأنهما من الناقلين، ولا تملأ أسماؤهما خانة سكان العالم السابق. أما الملوك والمدن التي لم تعينها النصوص الأساسية، فلا تنشأ لها خانات موهومة لمجرد أن كل حكاية مألوفة اعتادت أن تذكر ملكاً ومدينة.

الفصل العشرون: النسناس بين الرواية والحكاية الشعبية

كيف تنتسج الصورة؟

تبدأ بعض الصور التراثية بلفظ موجز، ثم تلحق به الشروح اللغوية، ثم تنقله الحكاية في هيئة مخلوق مرئي له أطراف وحركة وموطن. ومع كثرة التداول قد ينسى القارئ أن الصورة مركبة من طبقات مختلفة. ويصبح ما قاله اللغوي أو حكاة صاحب عجائب كأنه جزء من كلام الإمام.

تعرض مادة «نس» في المعاجم أوصافاً وحكايات متعددة. وهذه مادة نافعة لدراسة استعمال الكلمة وتاريخ الخيال، لكنها ليست بمجرد وجودها في معجم رواية مسندة عن الخلق السابق. كذلك فإن شرح المجلسي للفظ أو نقله عن أهل اللغة يجب أن يقرأ بوصفه شرحاً، مع تمييزه من حاشية المحقق الحديثة. [م٢، م٤]

اختلاف الزمن يكشف اختلاف الحكاية

إذا نسبت حكاية لغوية جماعة تسمى النسناس إلى زمن قوم متأخرين عن آدم، فلا يصح دمجها آلياً مع خبر يتحدث عما قبله. فقد يكون الاسم مشتركاً، أو يكون استعمالاً مجازياً، أو تكون الحكاية غير ثابتة أصلاً. لا نحتاج إلى اختيار أحد هذه التفسيرات بلا بينة؛ يكفينا أن نرفض جمع المتناقضات في سيرة واحدة لمجرد اتفاق الاسم.

ومن أخطر آثار هذا الخلط إسقاط أوصاف الحكايات على جماعات بشرية معاصرة. فالاختلاف في اللون أو المعيشة أو الثقافة لا يحول إنساناً إلى بقايا خلق أدنى. ولا يصلح التراث العجائبي سنداً لانتقاص كرامة الناس أو التشكيك في إنسانيتهم.

مكان الحكاية الصحيح

للحكاية قيمة في تاريخ الثقافة، وللرواية ما يبينه أهل الاختصاص في طريقتها ومنتها، وللعلم الطبيعي طريقته إلى فحص البقايا المادية. وفي هذا الكتاب أبقى الحكاية ضمن سياقها، وأنقل الرواية مع مصدرها وما وجدته من أحكام العلماء عليها. فلا أجعل قوة الصورة في النفس بديلاً من أمانة النقل أو سبباً لإضافة حكم لم يقله أهله.

الفصل الحادي والعشرون: اختلاف الأخبار ونتائج الموازنة

ليس كل اختلاف تعارضاً

قد يختلف خبران لأن أحدهما يتحدث عن الماضي والآخر عن خلق يأتي بعد القيامة. وقد يختلفان لأن لفظ العالم في أحدهما ليس مساوياً للأرض في الآخر. وقد يكون أحدهما عاماً والآخر يذكر مثلاً خاصاً. قبل الحكم بالتعارض ينبغي تحديد موضوع كل خبر وزمانه ونوع دعواه.

لكن هذه الإمكانيات لا تمنحنا حق التوفيق بأي ثمن. فالقول إن السبعة أقسام من الألف ألف، أو إن كل آدم يقود مرحلة من المراحل السبع، يحتاج إلى شاهد. إنه تركيب ممكن في الذهن، لا تفسير ثابت بمجرد إمكانه. وقد يصبح التوفيق المتكلف لوناً من اختراع رواية ثالثة لا توجد في أي من المصدرين.

مسار الموازنة

بدأت الموازنة بتعيين موضع النص، وفصل كلام الراوي عن الشرح، وبيان اختلاف الألفاظ، ونقل ما ورد من أحكام العلماء في مواضعه. ثم تناول الشرح ما تدل عليه عبارات المتن، مع إبقاء تكرار النقل عن المصدر الواحد متميزاً من تعدد الطرق.

تمنحنا هذه الشواهد مادة عن سعة الخلق وتعاقب عوالم واسم النسناس، وتبين حدود بناء تاريخ موحد منها. وفي عرضها نقلت حكم النجاشي في عمرو بن شمر، وبيان الطباطبائي بشأن اختصار أسانيد العياشي، وبيانات الخوئي وآراءه المذكورة في الفصل السابع. لكل قول صاحبه وموضعه، وأعتمد هذه النقول في مجالها دون أن أجمعها في حكم سندي جديد من عندي. [٣-٥٥؛ م ٣]

ما انتهى إليه هذا الباب

يمكن تلخيص نتيجة الموازنة في سؤال عملي: هل تغير الدليل، أم تغيرت طريقة عرضه؟ إذا نقلنا الخبر نفسه من مصدره إلى جامع لاحق، زاد عدد مواضع عرضه ولم يثبت بذلك طريق جديد. وإذا قارنا طريقين مختلفين، نشأت مسألة حقيقية في الاستقلال والاتصال تحتاج إلى دراسة. هذا التمييز يجعل المقارنة عملاً في الأدلة، لا إحصاء لعناوين الكتب التي تكرر القول.

الباب الخامس: من الخلق السابق إلى بداية حكايتنا

نصل الآن إلى موضع تلتقي فيه أسئلة التراث بآثار الأرض التي يدرسها العلم: النياندرتال، والدينيسوفان، وأنواع بشرية أخرى، وأزمنة تقاس بما حفظته الصخور والعظام. سأعرض ما نستطيع تعلمه من هذه الأدلة، ثم أعود إلى السؤال الذي يحمل الكتاب اسمه: ماذا يصح أن نقول عن الخلق قبل آدم؟ ومن هذه المقارنة نعبّر إلى مسؤوليتنا نحن عن المعرفة التي ننقلها، وعن الحياة التي نعيشها.

الفصل الثاني والعشرون: الخلق السابق والنياندرتال والبحث العلمي

حين تقرأ الأرض بآثارها

في المتحف عظم لا ينطق، وفي كتاب الحديث خبر نصل إليه بأسماء ناقله. وليس الصمت هنا غياباً لكل معرفة؛ فالأثر يخبرنا بما تسمح به دراسته، كما يخبرنا النص بما تسمح به ألفاظه وطريقه. نبدأ هذا الفصل من احترام هذين السبيلين، ثم نسأل عن حدود ما يمكن أن يصل بينهما.

يجت علم الإنسان القديم في العظام والأدوات والمواقع والطبقات، ويستعين بالتأريخ وبالمادة الوراثية القديمة حين تحفظ وتتاح. أما تحقيق الرواية فيبحث في المصدر والسند والمتن والسياق. وتنوع الأدوات لا يجعل كل نتيجة متساوية مع أي نتيجة أخرى؛ بل يقتضي أن نعرف الدليل الذي تحمل عليه كل دعوى.

كيف نعرف عمر الأثر؟

يبدأ التأريخ النسبي بموضع الأثر وعلاقته بالطبقات وما يقطعها أو يعلوها. وهو يبين الأقدم والأحدث، ثم تستعين الدراسة بطرائق القياس العددي المناسبة. وتعرض سميثسونيان مثال هيكل «لوسي»: اتسق تقديره اللاحق، نحو ٣,١٨ مليون سنة، مع المجال الذي رجحته مقارنة أحافير الطبقة. [١٩م]

أما الكربون المشع فجعله المعتاد عينات عضوية إلى حدود نحو خمسين ألف سنة؛ فلا يؤرخ به عمر الأرض أو كل أحفورة قديمة. وللمواد البركانية طرائق مثل البوتاسيوم-أرغون والأرغون-أرغون، تساعد في تقدير عمر الطبقات المرتبطة بمواقع الأحافير. ويختار الباحث الطريقة بحسب المادة والعمر المتوقع، لا بحسب الرقم الذي يرغب في الوصول إليه. [١٩م]

وقد يكون المقاس عمر مادة مرتبطة بالأثر، لا عمر العظم مباشرة. لذلك يجب بيان العينة وصلتها بالموقع وحدود القياس؛ كما أن تغيّر تقدير بعد فحص جديد لا يعني أن جميع التقديرات سواء. [١٩م]

الزمن العميق: الأرض والحياة قبل النوع البشري الحاضر

يقدر العلم عمر الأرض بنحو ٤,٥٤ مليار سنة، استناداً إلى شواهد التأريخ الإشعاعي وتاريخ النظام الشمسي. وتشرح هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية كيف انتقل تقدير العمر من افتراضات عن تبرد الأرض إلى قياسات النظائر والمقارنة بالنيازك. هذا زمن جيولوجي له وسائل تقديره، ولا يستخرج من جمع مدد الأخبار الروائية. [م١٤]

ويعرض السجل الأحفوري تنوعاً واسعاً للحياة قبل ظهور جنس الإنسان. ومن أمثلته الديناصورات غير الطيرية التي انتهى وجودها في انقراض وقع قبل نحو ٦٦ مليون سنة، مع بقاء الطيور فرعاً من الديناصورات. وتدعم الأدلة أثر اصطدام كويكب في ذلك الحدث، مع دراسة العوامل البيئية الأخرى. فلا يصح جعل هذا الانقراض هو زوال النسناس لمجرد اشتراك الوصفين في معنى النهاية. [م١٥]

هذه أمثلة تحدد مقياس الماضي الطبيعي؛ ولا يجوز اختزال تاريخ الحياة في الديناصورات أو حصر السابقين في كائن واحد. أما تعيين زمن آدم على هذا المقياس فلا تقدمه الآيات والأخبار التي درسناها على صورة تاريخ عددي متفق عليه.

الحياة المبكرة قبل مشهد البشر

قبل أن تكون الأرض موطناً لأجسام كبيرة وعظام تحفظها المتاحف، عرفت حياة مجهرية امتدت أزمنة طويلة. ويعرض متحف التاريخ الطبيعي بلندن شواهد أحفورية مقبولة على حياة تعود إلى نحو ٣,٥ مليار سنة، مع خلاف في تفسير بعض القرائن الأقدم. وتمثل الستروماتوليت تراكيب طبقية ارتبطت تكونها بنشاط كائنات دقيقة؛ فالشاهد على الحياة لا يلزم أن يكون هيكل حيوان كبير. [م٢٠]

وتظهر في السجل اللاحق كائنات متعددة الخلايا، وتنوع الحيوانات خلال الإدياكاري والكمبري، ثم تتسع البيئات التي تشغلها النباتات والحيوانات على اليابسة. وتكشف هذه الصورة أن تاريخ الحياة لا يبدأ بالإنسان ولا بالديناصورات، وأن تغير البيئة والحياة متداخلان عبر أزمنة طويلة. [م٢٠]

أما وجود شواهد مبكرة على الحياة فلا يحدد وحده اللحظة الأولى التي بدأت فيها، ولا يحسم جميع خطوات انتقال الكيمياء إلى الخلايا. ويعرض البحث في نشأة الحياة فرضيات وأدلة تختلف عن بحث تنوع الأحياء بعد وجودها؛ لذلك لا أجعل سؤالاً لم يغلق بعد نفيّاً لما تدعمه الأحافير والوراثة عن التطور. [م٢٠]

الإنسان العاقل والقراة التطورية

ينتمي البشر الأحياء جميعاً إلى النوع المسمى علمياً الإنسان العاقل، *Homo sapiens*. وتعود أقدم شواهد المعروفة في العرض العلمي المعتمد إلى نحو ثلاثئة ألف سنة في أفريقيا. هذا تعريف لنوع حيوي وتقدير زمني لشواهد، وليس تحديداً لشخص آدم أو زمن خلقه. [٦م]

وتشرح الأدلة الأحفورية والوراثية تاريخ الإنسان على صورة تفرعات ذات قرابات، لا صف من الكائنات ينتظر كل واحد منها انقراض السابق كي يظهر. وقد تتعاصر جماعات تختلف في بعض صفاتها. والخلاف في بعض حدود الأنواع أو صلات فروع بعضها لا يلغي الأدلة على التطور والقراة المشتركة. [٥م]

إنسان النياندرتال: الاسم والمكان والزمان

إنسان النياندرتال، اسم حديث لنوع بشري منقرض، *Homo neanderthalensis*. ومن شواهد بقايا في أوروبا وغرب آسيا ووسطها، ويضع العرض التعريفي لمؤسسة سميثسونيان نطاق وجوده التقريبي بين أربعئة ألف وأربعين ألف سنة مضت. وتتعلق هذه الحدود بالشواهد والتصنيف، وليست تاريخاً واحداً لولادة جميع أفراد أو موتهم. [٧م]

تظهر في بقاياها بنية قوية وأطراف قصيرة نسبياً، وصفات في الجمجمة والوجه تختلف عن المتوسط الشائع لدى الإنسان العاقل. وترتبط بعض صفاته بتكيفات للبرد. وتدل مواقع على أدوات حجرية واستعمال للنار والحصول على الغذاء. هذه حياة يعاد فهمها من أدلة متعددة، ولا يكفي اختلاف الملاحم للحكم على أصحابها بالبلادة أو الوحشية. [٧م]

ولا نأخذ حجم الدماغ وحده مقياساً جامعاً للقدرة العقلية، ولا نستخرج لغة كاملة أو اعتقاداً مفصلاً من هيئة الجمجمة. فما يتعلق بالتخطيط والسلوك الرمزي والكلام يدرس بقرائن متعددة، وتتفاوت قوة الأدلة فيه. وتبين مناقشات متحف التاريخ الطبيعي بلندن أن نسبة بعض الشواهد الرمزية وتواريخها ما تزال محل بحث. [٨م]

شَنيْدَر: شاهد عراقي وأسئلة عن التعامل مع الموتى

يمثل كهف شَنيْدَر في كردستان العراق موقعاً مهماً لدراسة النياندرتال. وقد أعادت الأبحاث الحديثة فحص ترتيب بعض البقايا ومواقعها، ومنها الهيكل المعروف باسم شَنيْدَر Z. ويعرض فريق جامعة كامبريدج أدلة ترجح وضع أجساد في مواضع مختارة، مع بحث ما إذا كان المكان قد أعيد استعماله لهذا الغرض. [٩م]

لكن ترجيح وضع الجسد عمداً لا يحسم وحده كل معنى ديني أو طقسي للفعل. وقصة «الدفن بالزهور» مثال على أهمية المراجعة: فقد خلصت دراسة حبوب اللقاح المنشورة سنة ٢٠٢٣ إلى احتمال أن يكون النحل المنفرد قد أودع بعض تجمعاتها، مع استمرار أهمية اجتماع الهياكل في موضع محدد. لذلك نفصل دليل التعامل مع الموتى عن قصة الزهور، ونفصل الاثنين عن أي دعوى بمعرفة عقائدهم تفصيلاً. [م١٠]

ماذا أضاف الحمض النووي القديم؟

أتاحت دراسة الحمض النووي القديم مقارنة مواد وراثية من بقايا النياندرتال بجينومات بشر قدامى ومعاصرين. وتدل النتائج على وقوع تزاوج وامتزاج وراثي بين جماعات من النياندرتال وأسلاف بشر من نوعنا. وتعرض أبحاث معهد ماكس بلانك أن غالبية ذوي الأصول من خارج أفريقيا يحملون نحو واحد إلى اثنين بالمئة من أصل وراثي نياندرتالي. هذه نسبة إحصائية متغيرة بين الأفراد والجماعات، وليست تعريفاً لقدر الإنسان أو مكانته. [م١١]

ورجحت دراسة عرضها المعهد في ديسمبر ٢٠٢٤ أن الجزء الأكبر من الأصل النياندرتالي المشترك يرتبط بفترة امتزاج ممتدة مركزها نحو سبعة وأربعين ألف سنة مضت، امتدت آلاف السنين. ويدل ذلك على تاريخ من التداخل، لا على استبدال بسيط لم تحدث فيه لقاءات. ولا يصح أن نقرأ كل قطعة وراثية اليوم بوصفها دليلاً على لقاء حديث أو على بقاء جماعة نياندرتالية مستقلة. [م١١]

وتناقش مادة سميثسونيان عن الحمض النووي القديم وصول أثر نياندرتالي إلى جماعات أفريقية أيضاً بفعل تاريخ الهجرات والعودة. لذلك لا نقسم البشر إلى فريق «خال تماماً» وفريق «مختلط» بقاعدة شعبية جامدة. وكل هؤلاء بشر من النوع الحاضر، ولا تمنح الاختلافات الوراثية مسوغاً لترتيب كرامتهم أو حقوقهم. [م١٢]

الدينيسوفان: فرع آخر لا اسم آخر للنياندرتال

أظهرت المادة الوراثية من كهف دينيسوفا في سيبيريا وجود جماعة بشرية قديمة تختلف وراثياً عن النياندرتال والإنسان العاقل، مع قربها التطوري منهما. وبين البحث الذي عرضه معهد ماكس بلانك سنة ٢٠١٠ وجود مساهمة دينيسوفانية في أسلاف بعض سكان أوقيانوسيا. فهذا مثال على أن اختلاف الدليل قد يكشف تفرعاً لم نكن نعرفه من الشكل وحده. [م١٣]

ولا يحول اكتشاف فرع آخر شجرة الإنسان إلى ترجمة لعدد العوالم في رواية. فالجماعة المعينة وراثياً ليست «عالمًا» بالضرورة في الاصطلاح الروائي، وتغير التصنيف العلمي لا يغير نص الخبر كل مرة.

أنواع أخرى توضح اتساع المقارنة

من الشواهد العلمية الإنسان المنتصب Homo erectus، الذي يمتد نطاقه التعريفي التقريبي من ١,٨٩ مليون إلى ١١٠ آلاف سنة مضت. وله انتشار واسع وشواهد على اختلاف في الهيئة بين جماعته، فلا يصح اختزاله في رسم واحد يوضع إلى جانب اسم النسناس ثم يعلن التطابق. [١٦م]

وتعود الأحافير المعتمدة للإنسان الفلوريسي Homo floresiensis في جزيرة فلوريس بإندونيسيا إلى نحو مئة ألف-ستين ألف سنة، مع أدوات تنسب إليه تمتد إلى نحو خمسين ألف سنة. وصغر قامته لا يثبت أوصاف المخلوق ذي الشق الواحد المنقولة في بعض الحكايات؛ فالصفة التشريحية المقيسة تختلف عن الصورة الأدبية. [١٧م]

وفي جنوب أفريقيا أرخت بقايا الإنسان الناليدي Homo naledi بنحو ٣٣٥ ألفا-٢٣٦ ألف سنة. وتجمع صفاته ملامح متعددة، ويبقى تحديد موضعه التفصيلي في شجرة القرابة موضوع بحث. وهذه النماذج منتقاة لشرح تعدد الشواهد، وليست قائمة بكل الأنواع المقترحة في علم الإنسان القديم. [١٨م]

لماذا اختفى النياندرتال؟

تدرس البحوث تفاعل عوامل مثل تقلب المناخ، وصغر الجماعات وتفرقها، والمنافسة على الموارد، والتزاوج والاندماج. ولا يقدم السجل جواباً واحداً يحسم مقدار مساهمة كل عامل في جميع المناطق. وقد يختلف توقيت اختفاء الجماعات محلياً، فلا يلزم أن يكون آخر جميع الأفراد قد ماتوا في حادث واحد. [٨م]

والانقراض، في استعمالنا هنا، يعني انتهاء الجماعة المميزة بوصفها جماعة مستقلة في السجل المعروف؛ لا انعدام كل أثر وراثي تركته في بشر آخرين. وهذا فرق مهم عند المقارنة بعبارات الإهلاك أو الإبعاد في الأخبار، التي تحتاج أولاً إلى ضبط لفظها ودلالاتها.

هل النياندرتال هم النسناس أو بشر قبل آدم؟

ليس في النصوص المركزية المقروءة وصف علمي يجمع اسم النسناس بمجموعة أو جينوم أو موقع نياندرتالي محدد. وليس في الأدلة الأحفورية بطاقة تحمل ذلك الاسم الروائي. لهذا لا يثبت التطابق بالقدم، أو بالشبه العام بالإنسان، أو بوجود أثر وراثي في بعض البشر الحاضرين.

كما أن قولنا إن النياندرتال عاصروا جماعات من الإنسان العاقل لا يحسم نسبتهم إلى آدم في البحث الديني؛ فذلك يتوقف على فهم النصوص المتعلقة بآدم والنسل وعلى تحديد صلة هذه المفاهيم بالتصنيف

الحيوي. لا تمنحنا المادة المدروسة تاريخاً عددياً لآدم نستطيع أن نضعه وسط الجدول العلمي ونحكم به على كل نوع.

وأميز بين بحث الإمكان وبحث الإثبات: قد يقترح قارئ فرضية للجمع، لكن عليه أن يحدد شواهدا وما الذي قد يبطلها. أما تغيير معنى النسب مع كل اكتشاف ليطلق أحدث اسم علي فلا يصنع برهاناً؛ إنه ينقل موضع الفراغ فحسب.

حصيلة المقارنة

ثبت علمياً وجود تنوع بشري قديم وقرابات وامتزاجات تكشفها أدلة مادية ووراثية. وثبت في حدود عملنا وجود أخبار معينة في مصادرها، مع اختلاف درجات طرقها ودلالاتها. أما المساواة بين جماعة روائية ونوع أحفوري معين فلم يقدّم عليها الدليل في هذا الكتاب.

وهذا الفصل من مادة المراجعة العلمية، فلا تنسب الاكتشافات اللاحقة وما بني عليها إلى تاريخ التأليف المثبت سنة ٢٠٢٣ م. وأرجو أن يجد القارئ فيه ما يعينه على قراءة الخبر العلمي كما يقرأ الخبر المروي: بعناية بمصدره، وبتمييز بين الدليل والتفسير وحدود النتيجة.

الفصل الثالث والعشرون: بداية عهد آدم عليه السلام

عند الحد الذي يقف فيه الكتاب

وصلنا إلى العتبة التي يبدأ عندها موضوع آخر: قصة آدم وذرية الإنسان الحاضر. ولا أريد أن أكرر هنا كتاب الإنسان في هذه السلسلة، ولا أن أستبق مباحث خلقه وتعليمه ومسؤوليته. يكفيننا أن نفهم أن بحث السابق لا يجعل آدم تفصيلاً زائداً؛ بل يساعد على التمييز بين سؤال بدء عهدنا وسؤال كل ما يمكن أن يكون قد وجد قبله.

في آية الخلافة يأتي الإعلان عن جعل خليفة في الأرض، ويأتي معه السؤال الذي ختم الجواب عنه بعلم الله بما لا يعلم السائلون. لقد كانت هذه الآية باباً للتأمل طوال الكتاب، لكنها لم تتحول إلى قائمة بأسماء سكان سابقين. وما يستوقفني عند نهايته ليس ادعاء معرفة كل ما غاب، بل أن العلم الإلهي أوسع من الصورة التي نخطط بها. [البقرة: ٣٠]

البداية مسؤولية لا امتياز بلا واجب

حين نقرأ تاريخ الخلق بوصفه مراتب للوجود وحدها، قد ننسى سؤال العمل. أما الإنسان الذي يتلقى المعرفة ويختار فعله، فلا تكفيه حكاية ماضي الأرض ليعرف قيمة نفسه. قيمته الأخلاقية لا تثبت باحتقار خلق سابق، ولا بمجرد الانتساب إلى زمن لاحق، بل تظهر في عدله ورحمته وصدقته.

وهذا تأمل أخلاقي أقدمه بصفتي قارئاً، لا تفصيلاً تاريخياً مستخرجاً من خبر الناس. فقد علمتني قراءة هذه الأخبار أن الحذر من الفساد يبدأ من النفس التي تقرأ، لا من مخلوقات بعيدة لا تستطيع أن تجيب عما ننسبه إليها.

من سؤال الآخرين إلى سؤالنا

سألنا طويلاً: من كان هنا قبلنا؟ وعند هذا الحد يحق لنا أن نسأل: ماذا نصنع نحن بوجودنا هنا؟ لا يلغي السؤال الثاني الأول، ولكنه يمنحه وجهة إنسانية. فالعلم الذي يزيد فضولنا ولا يزيد أمانتنا يظل ناقص الأثر في حياتنا.

وبذلك ينتهي نطاق هذا الكتاب عند بداية عهد آدم، ويبقى امتداد القصة إلى أبنائه وتاريخهم وسبل هدايتهم لموضعه من السلسلة. ترتيب الكتب خيط للقراءة، وليس دليلاً على ترتيب كل تفاصيل الكون، ولا بديلاً عن البرهان في أي مسألة.

الفصل الرابع والعشرون: ماذا تعلمنا من حكاية الخلق قبل آدم؟

اتساع الخلق وضيق معلوماتنا

أول ما تعلمته أن سعة القدرة الإلهية لا تمنحني معرفة تلقائية بتفاصيل آثارها. أستطيع أن أوّمن بأن الله لا يعجزه خلق، لكن لا أستطيع أن أملأ تاريخ الأرض بكل ما يستطيع خيالي تصويره ثم أنسبه إلى الدين. الإمكان أوسع من الوقوع، والوقوع أوسع مما بلغنا خبره، والخبر أوسع مما ثبتت نسبته.

والدرس الثاني أن حفظ السؤال قد يكون أنفع من جواب متعجل. لقد بقيت أسئلة الهيئة والأسماء والمعيشة والنهاية مفتوحة في مواضع كثيرة، ولم يكن ذلك فشلاً للقراءة. الفشل الحقيقي أن يغلق الكاتب السؤال بجواب لا يملك له شاهداً، فيورث القارئ ثقة زائفة يصعب عليه بعد ذلك مراجعتها.

الأمانة جزء من العبادة

أحفظ للروايات مكانتها بأن أنقلها في مواضعها، وأميز النص المنسوب إلى المعصوم من كلام الشارح، وأعزو أحكام السند والتحقيق إلى العلماء الذين اعتمدت عليهم. وأبين اختلاف ألفاظ النقول دون أن أخفيه أو أستقل بالحكم عليه. كما أحفظ للمعرفة العلمية حدودها، فأعرض ما تقوله المصادر المتخصصة وما لا تجيب عنه.

ولقد حاولت في هذا الكتاب أن أجمع بين محبة المعرفة والخوف من القول بغير علم. فإن أصبت فبتوفيق الله، وإن أخطأت فلا ينبغي أن تحمل المصادر ولا أهل البيت عليهم السلام خطأ فهمي أو ضعف عبارتي. وهذه المسؤولية لا تسقطها النية الحسنة؛ بل تجعل المراجعة واجباً أشد.

كتاب يفتح طريقاً

لا أريد للقارئ أن يخرج بصورة وحيدة مرسومة للنسناد، بل بطريقة قراءة يستطيع بها امتحان الصور التي تعرض عليه. يسأل عن المصدر، ثم الطريق، ثم اللفظ، ثم السياق، ثم مقدار النتيجة. فإذا فعل ذلك فقد أخذ من هذا الكتاب شيئاً أبقي من حكاية عجيبة.

وإذا أعادته هذه الصفحات إلى القرآن، وإلى التثبت في كتب الحديث، وإلى تواضع أكبر أمام تاريخ الخلق، فقد بلغت من غرضها ما أرجوه. أما بقية الطريق فليست وعداً بمعرفة كل غيب، وإنما دعوة إلى بحث يحفظ للعقل نشاطه وللإيمان صدقه وللإنسان كرامته.

الخاتمة: ما ثبت وما احتمل وما بقي مفتوحاً

حين بدأنا هذه الحكاية كانت المساحة السابقة لبدأتنا تبدو كصفحة بعيدة تتزاحم حولها الصور. وعند اختتام لم يتحول البياض كله إلى كتابة، لكننا صرنا أعرف بموضعه. هنا آية تصرح بسابقة خلق، وهنا خبر ننقله مع بيان العلماء فيه، وهنا لفظ تختلف قراءته بين مصدرين، وهنا أثر مادي تقرأه العلوم بأدواتها. بهذه العلامات أترك الصفحة للقارئ.

بدأ النظر من القرآن الكريم. فحفظنا التصريح بخلق الجان من قبل، وقرأنا مشهد الملائكة عند خلق آدم، وآيات الماء والدواب وسعة السماوات والأرض والإعادة. ولم نجعل اسم النسناس لفظاً قرآنياً، ولا حملنا الأعداد الروائية على آية لا تنص عليها. ومن حق كل شاهد أن يبقى في مرتبته التي يدل عليها. ثم قابلنا أخبار النسناس والعوالم السابقة في المصادر المعينة. وجدنا اختلافاً مؤثراً بين «أبين» و«أبيد»، وميزنا طريقاً عن آخر، ونقلنا جامعاً عن أصله. وقرأنا السبعة والألف ألف واثنى عشر ألفاً في سياقات مختلفة؛ فلم نصنع من اجتماع الأعداد تقويماً لخلق الأرض، ولم نجعل كثرة الكتب التي تكرر الخبر كثرة مستقلة في طريقه.

وحفظنا في هذا الجمع الفرق بين ورود النص في كتاب وبين الحكم الذي يذكره العلماء عليه. فنقلنا بيان بعض الأسماء، وتوثيق بعض الرواة، وأقوالاً في الضعف والجهالة منسوبة إلى أهل هذا الفن، وأثبتنا صيغ الطرق كما عرضتها المصادر. أذكر ذلك وفاءً للنص ولمن نقلوه وشرحوه؛ فاعتمادي على تحقيقهم يصحبه الحرص على ألا أضيف إلى أحكامهم ما لم يقولوه.

أما النسناس فلم تمنحنا الشواهد المركبة تاريخاً تفصيلياً بأسماء أفرادهم ومدنهم ومعايشهم. وقد اتضح أن اللفظ ينتقل بين سياق الخلق السابق والاستعمال اللغوي والتقويم الوصفي. وصارت هذه الفروق جزءاً من النتيجة: ليس كل ما قيل تحت الاسم وصفاً لجماعة واحدة، وليس في جمع الصور المتفرقة تحقيق لتاريخها.

وعند النياندرتال اتسعت نافذة أخرى. رأينا كيف تكشف الأحافير والأدوات والحمض النووي القديم عن جماعات بشرية منقرضة، وعن تعاصر وقاربة وامتزاج. وتعلمنا من شنيذر أن الدليل قد يبقى مهماً حتى حين تتغير قصة شائعة في تفسيره؛ فراجعة فرضية الزهور لا تحو البقايا ولا تلغي سؤال التعامل مع الموتى.

لم تثبت هذه الأدلة أن النياندرتال هم النسناس، ولم تقدم النصوص المدروسة تاريخاً عددياً لآدم
نفصل به جميع الأنواع الأحفورية إلى سابق ولاحق. لذلك يبقى الربط المقترح بحاجة إلى حجة خاصة
به. وأرى أن احترام المعرفة يقتضي إظهار هذا الموضوع بوضوح، مع الاعتراف بما أثبتته كل مجال في
حدوده.

ومن ثمرات الرحلة أن اختلاف الهيئة لا يجيز احتقار صاحبها، وأن نقص ما وصلنا عن جماعة لا
يجعلها صفحة مباحة نكتب عليها ما نشاء. فإذا حرصنا على العدل مع خلق لا يستطيعون الاعتراض على
وصفنا لهم، فحرصنا على العدل مع الناس الذين نلقاهم اليوم أولى وأقرب إلى الامتحان.
ولعل أصعب ما تعلمته في هذا الموضوع أن الجملة الجميلة تحتاج أحياناً إلى أن تتراجع خطوة. قد تكتمل
في الخيال صورة آخر صباح لجماعة غابت، لكنني لا أملك خبر ذلك الصباح. أستطيع أن أصف
دهشتي أمام الغياب، وأن أكتب ما يثيره في نفسي من سؤال؛ أما تحويل الدهشة إلى وقائع فليس من
حقني.

وحين بدأت كتابة السلسلة سنة ٢٠١٧م، كان رجائي أن يصل القارئ بين أبواب المعرفة من غير أن
تضيع خصوصية كل باب. وهذا الكتاب السادس يترك القارئ عند بداية عهد آدم عليه السلام، ليتابع
مع «حكاية الإنسان» ما يخص خلق الإنسان وحياته، ومع «حكاية الهداية» ما يتصل بطريق الرسالة.
وما جمع الكتب هو الرغبة في الفهم، لا ادعاء أن كتاباً واحداً يستطيع أن يستنفد الخلق.

لي من هذه الصفحات مسؤولية الجمع وأمانة النقل ووضوح الشرح. أتحمّل ما صغته من فهم، وأرد
فضل التحقيق في الروايات إلى العلماء الذين اعتمدت على كتبهم، وأنسب أقوالهم إليهم. وأرجو أن
يكون سجل الشواهد والمراجع معيناً للقارئ، وأن يجد من ينبني إلى خطأ في النقل أو الإحالة باباً
مفتوحاً وكلاماً يمكن تعيين موضعه وتصحيحه.

وأعود في آخر الطريق إلى الذين يحمل حضورهم معنى البداية في حياتي: أبي وأمي، وزوجتي، وابني
وابنتي، ومعلمي وطلابي. لكم المحبة والامتنان، ولكل قارئ صبر على سؤال أو صحح لفظاً أو دل على
مصدر نصيب من الدعاء. فبعض الكتب تنتهي صفحاتها وتبقى صحبة الذين أعانوا عليها.

يا رب، ارزقنا علماً يورث التواضع، وصدقاً يحتمل التصحيح، وقلباً يرى في سعة خلقك زيادة في
الشكر. ولا تجعل رغبتنا في إتمام الكلام سبباً للقول عليك بغير علم، واجعل خير هذه الصفحات نافعاً،
وخطأها ظاهراً لمن يصلحه.

نترك السجل وفيه بياض، لكننا نترك إلى جواره مفاتيح للقراءة. وما لم نعرفه عن ماضي الأرض لا
يمنعنا أن نكتب في حاضرها سطرًا أمينًا، وأن نمنح من يأتي بعدنا فرصة أن يعرف أكثر مما عرفنا.

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

تاريخ التأليف: ٢ تموز ٢٠٢٣ م — ١٤ ذي الحجة ١٤٤٤ هـ.

تاريخ المراجعة والتحديث المعتمد: ١٧ / ٤ / ٢٠٢٦ م — ٢٩ شوال ١٤٤٧ هـ.

تظل تواريخ الكتاب والسلسلة والنسخة بيانات مستقلة، ولا تنسب الإضافات العلمية اللاحقة إلى سنة
التأليف الأولى.

الملاحق

الملحق الأول: الآيات القرآنية المعتمدة

يجمع هذا الملحق تسع عشرة آية كاملة كما استشهد بها المتن، مع بيان مواضع الاستعمال. ودلالة الآية على أصل عام لا تعني دلالتها على كل تفصيل روائي قورن بها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. سورة الإسراء، الآية ٣٦.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة العنكبوت، الآية ٢٠.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة، الآية ٣٠.

قال تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. سورة ق، الآية ١٥.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. سورة إبراهيم، الآية ٤٨.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. سورة النساء، الآية ١.

قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. سورة الحجر، الآية ٢٧.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. سورة الكهف، الآية ٥٠.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. سورة هود، الآية ٧.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة النور، الآية ٤٥.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾. سورة الشورى، الآية ٢٩.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. سورة الطلاق، الآية ١٢.

قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة النحل، الآية ٨.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾. سورة الإنسان، الآية ١.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾. سورة الأنعام، الآية ١٣٣.

قال تعالى: ﴿لَنَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾. سورة الواقعة، الآية ٦٠.

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة الواقعة، الآية ٦١.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾. سورة الواقعة، الآية ٦٢.

مواضع الاستعمال: الإسراء ٣٦ في منهج الكتاب؛ العنكبوت ٢٠ في الفصل الأول؛ والآيات الأخرى في الفصل الثاني وما يتصل به من مباحث. وترد إحالات سياقية إلى فصلت ٩-١٢، والسجدة ٧-٩، وص ٧١-٧٦. ويعود الفصل الثالث والعشرون إلى معنى آية الخلافة من غير إعادة نصها.

الملحق الثاني: سجل النصوص الروائية المركزية

المقاطع التالية منتخبات لا نصوص كاملة للأخبار الطويلة. كل عبارة محاطة بعلامتي التنصيص اقتباس محدود، وما عداها وصف تحريري. لا يدل الاختصار على مقطع على سقوط بقية الخبر من أصله.

[ر ١] خبر النسناس بطريق تفسير القمي

المصدر المقابل مباشرة: تفسير القمي، ج ١، منشورات مكتبة الهدى، مطبعة النجف، ١٣٨٦ هـ كما على صفحة العنوان، بتصحيح وتعليق وتقديم السيد طيب الموسوي الجزائري؛ ص ٣٦-٣٧، مع قراءة السياق التالي في ص ٣٨، من المصورة المحفوظة بمكتبة جامعة نيويورك. وقورن بنقل البرهان، ج ١ ص ١٧١، الخبر ٣٨٦/ [٥]، وبحار الأنوار، ج ٦٠ ص ٢٧٣، ح ١٦١.

من افتتاح الخبر في البرهان: «إن الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده، وذلك بعد ما مضى من الجن والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة».

من عبارة النهاية في البرهان: «وأبين النسناس عن أرضي وأطهرها منهم». وفي صفحة ٣٧ من طبعة تفسير القمي المصورة: «وأبيد النسناس من أرضي». وترد قراءة «وأبيد» كذلك في النقل المقارن في البحار. لم تدج العبارات المختلفة في اقتباس واحد.

الطريق المعروض في البرهان، بصياغة فهرسية: علي بن إبراهيم عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن ثابت الحذاء، عن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام. وفي صورة تفسير القمي ص ٣٦: «عن عمرو بن مقدام عن ثابت الحذاء عن جابر بن يزيد الجعفي». ويأتي بيان الخوئي للاسم في الفصل الحادي عشر منسوباً إليه، مع حفظ صيغة كل مصدر في موضعها.

لبيان الخوئي في اسم عمرو وتعيين ثابت الحذاء، ولأقوال العلماء في الرواة والطرق: انظر الفصل الحادي عشر والمراجع [م ٣].

الدلالة محل البحث: ورود الاسم في خبر سابق لخلق آدم. تنبيه في النقل: تحفظ ألفاظ المصدر وأحكام العلماء في مواضعها؛ ولا تنقل الأوصاف المتعلقة ببني الجان في أثناء الخبر إلى النسناس تلقائياً.

[ر ٢] خبر النسناس بطريق علل الشرائع

المصدر المقابل مباشرة: علل الشرائع، ج ١، الباب ٩٦ «علة الطبائع والشهوات والمحبات»، ح ١، من الطبعة الثانية بتصحيح وتعليق السيد فضل الله الطباطبائي اليزدي، المطبعة العلمية، قم؛ المقاطع

المعتمدة في ص ١٣٩-١٤١. وتقابلها ص ١٠٤-١٠٥ في النص الرقي الذي يذكر طبعة المكتبة الحيدرية ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م. وقورن بنقل بحار الأنوار، ج ٦٠ ص ٨٢-٨٣، ح ٣٨.

في افتتاح الخبر المطبوع: «لما أحب أن يخلق خلقا بيده، وذلك بعد ما مضى من الجن والنسنا في الأرض سبعة آلاف سنة». وفي نقل البحار المقروء: «لما أحب أن يخلق خلقا بيده وذلك بعد ما مضى للجن والنسنا في الأرض سبعة آلاف سنة». أثبت الفرق بين «من الجن» و«للجن» بحسب كل شاهد.

ومن عبارته في الصفحة المصورة ١٤١: «وأبين النسنا من أرضي فأطهرها منهم». وتوافقها العبارة في موضع البحار المعتمد.

الطريق في الطبعة المصورة، بصياغة فهرسية: محمد بن الحسن، عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام، عن جابر، عن أبي جعفر، قال: قال أمير المؤمنين عليهما السلام. والصياغة الفهرسية تختصر ألفاظ الأداء ولا تستبدل بها متن الخبر.

الفرق البارز عن [١]: لا يظهر ثابت الحذاء في طريق علل الشرائع المعروض في الصفحة المصورة ١٣٩. أثبت كل طريق بحسب مصدره، وأحيل في بيان اسم الراوي إلى قول الخوئي المنقول في الفصل الحادي عشر، دون أن أضيف حكماً مستقلاً على منشأ هذا الاختلاف.

[٣] خبر ألف ألف عالم وألف ألف آدم

المصدر المقروء إلكترونيًا: الصدوق، التوحيد، باب ٣٨ «ذكر عظمة الله جل جلاله»، ح ٢، ص ٢٧٧. والمصدر المقابل بالصورة: الخصال، طبعة المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٦١٥، ح ٥٤ من أبواب ما بعد الألف.

المقطع المقصود: «لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم، بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين». قبل هذا المقطع حديث عن خلق يجدد بعد فناء هذا العالم ومصير أهل الجنة والنار؛ فلا ينقل وصف ذلك المستقبل إلى الماضي بلا قرينة.

الطريق في نص التوحيد الإلكتروني وصورة الخصال، بصياغة فهرسية: والد الصدوق، عن سعد بن عبد الله، عن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن عمرو بن شمر، عن جابر بن يزيد، عن أبي

جعفر عليه السلام. هذا اتفاق في السلسلة المعروضة، فلا يعد ورودها في المصنفين وحده تعدداً مستقلاً يرفع أثر الراوي المشترك.

موضع التحفظ الرجالي: عمرو بن شمر؛ وصفه النجاشي في الترجمة ٧٦٥، ص ٢٨٧، بالضعف الشديد، ونقله الخوئي في الترجمة ٨٩٣٨. قرئ موضع النجاشي إلكترونياً. لذلك لا يوصف الطريق هنا بالصحة، ولا يخلط صاحبه بعمرو بن أبي المقدام الوارد في خبر النسناد. [٣م]

[٤] خبر العوالم السبعة

النص المقابل بالصورة: تفسير العياشي، تصحيح وتعليق هاشم الرسولي المحلاقي، طبعة الأعلي الأولى المحققة، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج ٢ ص ٢٥٥، ح ٥٧. ويقابل هذا الموضع ص ٢٣٨ في العرض الإلكتروني المستخدم.

المقطع المتعلق بالماضي في صورة العياشي: «لقد خلق الله في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من ولد آدم، خلقهم من أديم الأرض فأسكنوها واحداً بعد واحد مع عالمه، ثم خلق الله آدم أباً هذا البشر وخلق ذريته منه». أثبتت الهمزات في العرض الإملائي دون تغيير الكلمات.

للمتن امتداد يتحدث عن المصير وخلق جديد، لم ينقل هنا. وقبول خبره بصورة الخصال، طبعة الحيدرية، ص ٣٢٨، باب السبعة، ح ٤٥. وفيها «ليس هم من ولد آدم» و«فأسكنهم فيها»، بينما ورد الموضع في العرض الإلكتروني بترقيم ص ٣٥٨-٣٥٩.

طريق الخصال المقروء في الصورة، بصياغة فهرسية: محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، عن محمد بن الحسن الصفار، عن محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن محمد بن عبد الله بن هلال، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام.

ملاحظات النقل: يذكر الخوئي في ترجمة محمد بن عبد الله بن هلال روايته عن العلاء ورواية ابن أبي الخطاب عنه ووقوعه في كامل الزيارات، دون لفظ توثيق شخصي صريح في النص المعتمد. وأُحيل إلى بيانه في نطاق توثيق رجال كامل الزيارات في صراط النجاة، ج ٢ ص ٤٥٧، س ١٤٢٧، بوصفه رأياً منسوباً إليه. يجمع الفصل السابع هذه النقول ولا يصدر حكماً رجالياً مستقلاً على الخبر. أما اختصار أسانيد تفسير العياشي فيبينه تصدير الطباطبائي للجزء الأول، ص ٧. [٣م]

[٥] خبر الخلق غير المسمى

الموضع المقابل بالصورة: تفسير العياشي، طبعة الأعلي الأولى المحققة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج ١ ص ٤٩-٥٠، ح ٨؛ ويقابله ص ٣١-٣٢ في النص الإلكتروني المستخدم. يبدأ بعيسى بن حمزة، وفيه حكاية سؤال رجل لأبي عبد الله عليه السلام.

المقطع المحدد لموضوعنا: «خلقا ليس من الجن ولا من الملائكة ولا من الانس».

يعرض السياق خمسين ألف عام موزعة على خمس مدد مقدار كل منها عشرة آلاف: خلو أول، وخلق غير مسمى يصرح النص بأنه ليس من الأصناف الثلاثة المذكورة، وخلق تال، والجن، وعهد آدم. ويذكر انقضاء سبعة آلاف ومئتي عام من المدة الأخيرة. هذه بيانات الخبر المقروء في ص ٤٩-٥٠، لا جدول معتمد لعمر الأرض أو موعد نهاية العالم. ولا يسمي النص الخلق السابق في مرحلته الثانية سناساً؛ فالحاق الاسم به تفسير زائد على لفظه.

ملاحظات النقل: أثبتت ألفاظ المقطع والمدد من ص ٤٩-٥٠، وطريق المصنف غير معروض في النسخة المختصرة، كما يوضح بيان اختصار الكتاب. وأُحيل إلى تعريف عيسى بن حمزة في المعجم، دون نسبة حكم إلى الخوئي لم يرد في موضعه. وتبقى الأعداد جزءاً من الخبر المنقول، ولا أحولها إلى تقويم تاريخي محسوم. [٣م]

[٦] خبر اثني عشر ألف عالم

المصدر المقابل: الصدوق، الخصال، طبعة الحيدرية، النجف، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٦٠٢، ح ١٤، تحت عنوان «من روى أن لله عز وجل اثني عشر ألف عالم». وتقابله ص ٦٣٩ في ترقيم طبعات أخرى.

من المتن المقروء في الصورة: «إن لله عز وجل اثني عشر ألف عالم كل عالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين». وفي ختام هذا الشاهد: «وأنا الحجة عليهم». يثبت اللفظ بحسب هذه الطبعة ولا يعمم على كل عرض إلكتروني أو طبعة.

الطريق، بصياغة فهرسية: والد الصدوق، عن سعد بن عبد الله، عن الحسين بن عبد الصمد، عن الحسن بن علي بن أبي عثمان، عن العباد بن عبد الخالق، عن حدثه، عن أبي عبد الله عليه السلام. عبارة «عن حدثه» ظاهرة في عدم تسمية واسطة؛ ولم يجر هنا تصحيح مستقل لمجموع السند.

مجال الاستعمال: الفصل الخامس، لتمييز كثرة العوالم من تعاقبها. لا يصرح موضع الشاهد بأن هذه العوالم جماعات أرضية سبقت آدم، ولا يذكر النسب.

[٧] خبر الماء وبدء الخلق

المصدر المقروء: الكليني، الكافي، طبعة دار الحديث، العرض الإلكتروني لج ١٥ ص ٢٣٥، ح ٦٨/١٤٨٨٣. وتحيل حاشية الطبعة إلى تكراره برقم ١٤٩٥٧. ويعرض في تقسيم آخر لروضة الكافي ضمن ج ٨ برقم ٦٨، وله موضع برقم ١٤٢؛ فلا تخلط أرقام الطبقات والتقسيمات.

موضع الشاهد الافتتاحي: «كان كل شيء ماء وكان عرشه على الماء». ثم يأتي ذكر النار والدخان وتكوين السماوات والأرض. قرئ الخبر للمقارنة الموضوعية، لا لإثبات تطابق مع نموذج كوني علمي. الطريق المعروض يبدأ بمحمد، عن أحمد بن محمد، ويتفرع عبر ابن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم، وعبر الحجال عن العلاء عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام. يشرح هامش الطبعة موضع التحويل في السند، وأعتمد بيانه في عرض الطريق، دون إنشاء حكم رجالي مستقل.

[٨] خبر الناس وأشباه الناس والنسناس

المصدر المقروء مباشرة: الكافي، ج ٨، روضة الكافي، ح ٣٣٩ في الترقيم الإلكتروني المقروء. وقرن بنقل المجلسي في بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، ج ٢٤ ص ٩٥-٩٦، باب ٣٥ «أنهم عليهم السلام الناس»، ح ٢؛ ويحيل هامش البحار إلى روضة الكافي ص ٢٤٤-٢٤٥.

يحكي الإمام علي بن الحسين عليه السلام سؤال رجل لأمير المؤمنين، ثم جواب الإمام الحسين عليهما السلام عن الناس وأشباههم والنسناس. وفي موضع الشاهد إشارة إلى جماعة من الناس؛ فاستعمل في الفصل العاشر لضبط اختلاف السياق، دون نقله إلى تصنيف تشريحي أو إلى تاريخ سكان الأرض قبل آدم.

الطريق في بداية الوحدة الإلكترونية المعتمدة: ابن محبوب، عن عبد الله بن غالب، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب، قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام. ويعرض نقل البحار قبله طريق العدة عن سهل، وطريق علي بن إبراهيم عن أبيه، جميعاً عن ابن محبوب. أثبت ما يظهر في كل موضع، وأعتمد حكم المجلسي الآتي منسوباً إليه، مع فصل الشرح المعجمي اللاحق في البحار عن متن الخبر.

وحكم المجلسي في مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج ٢٦ ص ٢١٠، عند الحديث ٣٣٩: «مجهول». قرئ الحكم في النص الإلكتروني للشرح نفسه؛ والإحالة هنا إلى الجزء السادس والعشرين. أنقل درجته كما أثبتها، ولا أجعلها حكماً بوضع الخبر أو تعييناً مني للراوي الذي قصد جهالته. ويظل استعمال اللفظ شاهداً سياقياً ضمن حدود هذه النسبة.

الملحق الثالث: سجل النقل وحدوده

تضم المادة القرآنية آيات سابقة الجان وخلق السماوات والأرض والماء وتنوع الدواب وسعة الخلق، وآية الاستخلاف في الأنعام ١٣٣ وآيات الإنشاء في الواقعة ٦٠-٦٢. ومن الشواهد الروائية خبر اثني عشر ألف عالم في الخصال، ص ٦٠٢؛ وخبر الماء في الكافي؛ وخبر الناس وأشباههم والنسب في روضة الكافي ونقله في بحار الأنوار، ج ٢٤. وتبين بطاقات [٦٠-٨٠] بيانات هذه المواضع، وتفصل بين صور الطبقات والنصوص الإلكترونية والنقول المقارنة.

تعتمد المقارنة العلمية في الفصل الثاني والعشرين مراجع عن النياندرتال وشنيدر والخص النوي القديم والدينيسوفان والإنسان المنتصب والفلوريسي والناليدي. وتعرض طرق التأريخ النسبي والإشعاعي وشواهد الحياة المبكرة. وهذه المصادر لفهم التاريخ الطبيعي والمقارنة؛ فلا يُستخرج منها حكم على سند رواية، ولا تعين هوية النسب دون دليل يربط المجالين.

يرد خبر العوالم والآدميين في التوحيد، باب «ذكر عظمة الله جل جلاله»، وله شاهد في الخصال، ص ٦١٥، ح ٥٤. أثبت موضع التوحيد من النص الإلكتروني وشاهد الخصال من صورة الطبعة، مع بيان اتفاق الطريق المعروض فيهما، ونقل حكم التجاشي في عمرو بن شمر من موضعه ومن نقل الخوئي عنه.

ترتب الأخبار بحسب موضوعها وسياقها الزمني، وتعرض الفروق الظاهرة بين طريقي خبر النسب، مع تمييز المصدر الأصلي من الكتب التي نقلت عنه.

صغت المقدمات والإهداء والشكر والخاتمة بلغة السلسلة وروح موضوع هذا الكتاب، وأبقيت الآيات والروايات وأقوال العلماء منسوبة إلى مصادرها. وأفصل في العرض بين النص المنقول وتعليقي عليه، ليعرف القارئ صاحب القول وموضع الشرح.

موضعا خبر السبعة المعتمدان هما الخصال، طبعة الحيدرية، ص ٣٢٨، ح ٤٥، وتفسير العياشي، طبعة الأعلمي، ج ٢ ص ٢٥٥، ح ٥٧. وترد عبارة «ليس هم من ولد آدم» في الموضعين، مع اختلاف «فأسكنهم فيها» و«فأسكنوها». وتذكر الإحالات ترقيم كل طبعة متميزاً من ترقيم العرض الإلكتروني.

وتعتمد نقول خبر النسب صور تفسير القمي، ج ١ ص ٣٦-٣٨، وعلل الشرائع، ج ١ ص ١٣٩-١٤٢، في الطبعة الثانية بتصحيح وتعليق الطباطبائي اليزدي. وتحفظ ألفاظ النهاية وصيغ الأسماء وموضع ثابت الخفاء كما تعرضها هذه المواضع، مع بيان الخوئي للأسماء في الفصل الحادي عشر. أما حكم المجلسي على [٨٠] فنقل من نص مرآة العقول الإلكتروني، ج ٢٦ ص ٢١٠.

وتتضمن النقول خبر الخلق غير المسمى في تفسير العياشي، طبعة الأعلمي، ج ١ ص ٤٩-٥٠، ح ٨، وبيان اختصار الأسانيد في تصدير الطباطبائي، ص ٧. وتضمن تعريف الخوئي بمحمد بن عبد الله بن هلال وعيسى بن حمزة في معجم رجال الحديث، وبيانه في نطاق توثيق رجال كامل الزيارات في جواب السؤال ١٤٢٧ من صراط النجاة. أنسب هذه البيانات والآراء إلى أصحابها، وأعتمد عليها في النقل والشرح.

نطاق الجمع: اعتمد الكتاب المواضع والطبعات المبينة في الإحالات، وقوبلت النقول بها لضبط الألفاظ والصفحات. ولم يقصد جمع جميع طبعات الكتب ومخطوطاتها أو استيعاب كل موضع ورد فيه لفظ النسناس في التراث. وتبقى أحكام الرواة والأسانيد منقولة عن العلماء المعتمدين، بحسب ما صرحوا به في المواضع المشار إليها.

طبيعة هذا الكتاب: عمل في النقل والجمع والترتيب والشرح، يستفيد من تحقيق العلماء أصحاب المصادر ومحققها وأهل الاختصاص، ويعتمد أقوالهم مع نسبتها إليهم. ولا يتخذ إعادة تحقيق الأسانيد بعدهم مهمة له أو شرطاً لا اكتماله، كما لا ينسب إليهم حكماً عاماً لم يصرّحوا به.

وتتعلق مسؤوليتي هنا بصحة النقل، ووضوح نسبته، ودقة الإحالات، واتساق الشرح مع المادة المعتمدة. فإذا ظهر خطأ في اسم أو لفظ أو صفحة صُحّح في موضعه وفي الفهارس المتصلة به، مع بقاء الحكم العلمي المنقول منسوباً إلى قائله.

الملحق الرابع: الفروق النصية المؤثرة

الفرق الأول — نهاية النسب: في مصورة تفسير القمي، ج ١ ص ٣٧، «وأيد»، وفي مصورة علل الشرائع، ج ١ ص ١٤١، «وأبين». ويعرض البرهان «وأبين»، مع تنبيه حاشيته إلى «وأيد» في المصدر، ويوافق نقل البحار عن القمي قراءة «وأيد». أثر المقابلة: حفظ القراءتين في مواضعهما، وبيان أثر اختلافهما في الفهم، دون أن أقدم ترجيحاً مستقلاً من عندي.

الفرق الثاني — حرف الجر وصيغة التطهير: في المواضع المنتخبة «عن أرضي» و«من أرضي»، و«وأطهرها» و«فأطهرها». هذه فروق نقل صغيرة، لكنها تؤكد ضرورة عدم صناعة اقتباس مركب ثم نسبته إلى مصدر واحد.

الفرق الثالث — الطريق: وجود ثابت الحذاء في صفحة تفسير القمي المصورة، وعدم ذكره في صفحة علل الشرائع المصورة. أثره: حفظ كل طريق كما عرضه مصدره، وعدم إضافة تفسير لمنشأ الاختلاف لم ينقل عن أهل الاختصاص. ويُذكر تعيين الخوئي لثابت الحذاء منسوباً إليه، مع إبقاء ألفاظ النقول كما وردت.

الفرق الرابع — المجال الزمني: خبر التوحيد يجمع حديثاً عن تجدد الخلق في المستقبل مع ذكر عوالم وآدميين سابقين. أثره: عدم حمل أوصاف أحد السياقين على الآخر.

الفرق الخامس — اللفظ والشرح: أوصاف الهيئة المنقولة من المعاجم ليست جزءاً من المقطع الروائي المركزي لمجرد مجاورتها له في الصفحة. أثره: عدم نسبة الصورة المعجمية إلى الإمام دون نص مستقل.

الفرق السادس — صيغة خبر السبعة: أثبتت صورة الخصال الحيدرية، ص ٣٢٨، عبارة «ليس هم من ولد آدم»، موافقة لصورة العياشي، ج ٢ ص ٢٥٥. لذلك لا أعتمد حذف «من» في العرض الإلكتروني فرقاً ثابتاً بين الكتّابين. أما فعل الإسكان ففي صورة الخصال «فأسكنهم فيها»، وفي صورة العياشي «فأسكنوها». أبقى اقتباس كل شاهد منسوباً إليه، ولم أركب من الصيغتين نصاً ثالثاً. [٤]

الفرق السابع — موضع الحاشية: حاشية أحمد بن هلال في صفحة الخصال ٣٥٨ مرتبطة بالحديث ٤٤، لا بخبر السبعة الذي يبدأ بعدها برقم ٤٥. أثر هذا التمييز: إبقاء حكم العالم في موضعه، ومنع نقله إلى راو آخر بسبب تشابه الاسم أو ترتيب الصفحة. [٤ر]

الفرق الثامن — صيغة اسم الراوي: تعرض صفحة تفسير القمي المصورة «عمرو بن مقدم»، بينما يرد في نقل البرهان وفي طبعة علل الشرائع «عمرو بن أبي المقدم». لا تضاف كلمة «أبي» إلى اقتباس الصورة دون تنبيه. وقد بينّ ترجيح الخوئي للصيغة الثانية في الفصل الحادي عشر؛ فيميز بين إثبات رسم الشاهد وبين ترجيح الاسم. [١ر، ٢ر، ٣م]

الملحق الخامس: بطاقة المقارنة بين الأخبار

الخبر	مجال الدلالة	حدود الاستدلال
[١]، [٢]	النسناد قبل خلق آدم؛ ذكر المدة وعبرة النهاية.	لا يقدمان تاريخاً حضارياً أو وصفاً تشريحيًا مفصلاً. يبين الفصل الحادي عشر اختلاف الطريق واللفظ.
[٣]	عوالم وآدميون وبشر سابقون، ضمن خبر يتناول أيضاً خلقاً مستقبلاً.	لا يسمي تلك العوالم نسلًا، ولا يوزعها على عصور علمية. يرد حكم النجاشي على عمرو بن شمر في بطاقته.
[٤]	سبعة عالمين ليسوا من ولد آدم؛ تعاقب على الأرض قبل آدم أبي هذا البشر.	لا يذكر أسماء السبعة، ولا يحدد علاقة كل عالم منها بالنسناد. ينقل الفصل السابع بيانات طريقه وأقوال العلماء.
[٥]	خلق يصرح الخبر بأنه ليس من الجن ولا الملائكة ولا الإنس؛ سياق مدد وتعاقب.	لا يسميه نسلًا، ولا يقدم علامة تربطه بنوع أحفوري. طريق المصنف غير معروض في النسخة المختصرة.
[٦]	اثنا عشر ألف عالم؛ موضوع الخبر سعة الخلق.	لا يصرح بتعاقبها على أرضنا قبل آدم، وفي الطريق واسطة غير مسماة.
[٧]	الماء وبدء تكوين العالم.	لا يسمي النسناد، ولا يثبت بمجرد تطابق مع نموذج كوني علمي.
[٨]	استعمال تقويي للفظ النسناد في حديث عن جماعات من الناس.	لا يصنف جماعة أحفورية، ولا يصف خلقاً أرضياً سبق آدم.

النتيجة المقارنة: اجتماع الأخبار في البحث لا يثبت اتحاد موضوعاتها، واختلافها لا يثبت وحده تناقضاً قبل تعيين مجال كل خبر ودراسة طريقه ودلالته.

الملحق السادس: معجم المصطلحات

النسئاس: لفظ متعدد الاستعمالات في الموروث؛ يحدد المقصود منه بحسب المصدر والسياق، ولا يفترض له تعريف واحد في جميع المواضع.

العالم: مجموعة أو مجال من الخلق بحسب السياق؛ لا يساوي آلياً كوكباً مستقلاً أو حقبة جيولوجية. آدم: اسم أبي البشر في سياقه المعروف، وورد جمع الآدميين في الخبر المدروس؛ لا يستنتج من الاشتراك اللفظي وحده تحديد علمي لنوع أو زمن.

المتن: الكلام المنقول في الرواية، في مقابل طريق نقله.

السند: سلسلة الناقلين كما يوردها المصدر؛ ويعتمد الكتاب أحكام أهل الاختصاص فيه مع نسبتها إليهم. التخريج: تعيين مواضع الخبر وطرقه وألفاظه في المصادر؛ وهو غير الحكم بصحته.

التحقيق الرجالي: دراسة أحوال الرواة وهوياتهم وأحكام أهل الاختصاص فيهم.

الدلالة: المعنى الذي يسمح اللفظ والسياق باستفادته، بعد تمييزه من الاحتمال الذي يضيفه القارئ.

ثبوت النص في المصدر: التحقق من أن الكتاب يتضمنه؛ وهو غير ثبوت صدوره عن المنسوب إليه.

النقل الوسيط: قراءة خبر في كتاب ينقله عن مصدر أقدم لم تقابل نسخته مباشرة.

الإبانة: الفصل أو الإبعاد بحسب الاستعمال؛ لا يختار معنى تفصيلي لها في الخبر بمعزل عن المقابلة والسياق.

الإبادة: الإهلاك؛ وورود اللفظ في إحدى القراءات لا يحسم وحده أي القراءات أقدم وأثبت.

الإنسان العاقل: اسم تصنيفي علمي للنوع الذي ينتمي إليه البشر الأحياء؛ لا يستعمل هنا مرادفاً تلقائياً لاسم النسئاس.

النياندرتال: نوع بشري منقرض يدرس من أحافيره وآثاره ومادته الوراثية؛ ليس مرادفاً مثبتاً للنسئاس.

الدينيسوفان: جماعة بشرية قديمة ميزتها الأدلة الوراثية عن النياندرتال والإنسان العاقل، مع قرابات وامتزاجات بينها.

الحمض النووي القديم: مادة وراثية محفوظة في بقايا قديمة، تستخلص وتفحص بضوابط تتعلق بالتلف والتلوث؛ وليست متاحة من كل أحفورة.

الامتزاج الوراثي: انتقال مادة وراثية بين جماعات بالتكاثر؛ لا يعني استمرار جماعة منقرضة بوصفها جماعة مستقلة إلى اليوم.

الانقراض: انتهاء نوع أو جماعة مميزة من الوجود؛ وقد يبقى جزء من إرثها الوراثي في جماعة أخرى إذا وقع بينهما تزاوج.

التأريخ النسبي: تعيين الأقدم والأحدث من علاقات الطبقات والشواهد.

التأريخ الإشعاعي: تقدير العمر بقياس نظائر مشعة ونواتج تحللها ضمن شروط طريقة محددة.

الستروماتوليت: تراكم طبقة يرتبط تكوينها بنشاط كائنات دقيقة، وترد ضمن شواهد الحياة المبكرة.

الملحق السابع: حدود المادة المنقولة

اختلاف لفظ النهاية: وردت «أيد» في طبعة تفسير القمي و«أين» في طبعة علل الشرائع المعتمدتين. يعرض الكتاب اللفظين وما اتصل بهما من شرح، دون أن ينسب إلى العلماء ترجيحاً لم ينقله عنهم، أو يتولى ترجيحاً مخطوئياً مستقلاً.

طريقاً خبر النسناس: أثبت كل طريق بحسب مصدره، وسُجل اختلاف الأسماء والوسائط مع بيان العلماء حيث ورد. ولا تعد كثرة الكتب الناقلة وحدها حكماً من أهل الاختصاص باستقلال الطرق. أحكام الرواة: تُنقل أقوال العلماء في مواضعها، ومنها بيانات محمد بن عبد الله بن هلال في معجم رجال الحديث ورأي الخوئي في نطاق توثيق رجال كامل الزيارات. ويُفصل التعريف بالراوي عن الحكم الصريح عليه، وتبقى نسبة كل قول محددة بصاحبه ومصدره؛ فلا أضيف حكماً رجالياً من عندي. أعداد العوالم والآدميين: يعرض الكتاب ما ورد في الأخبار وشروحها، ولا يستخرج من العدد وحده خريطة كونية أو سنوات لتاريخ الأرض لم تبينها المصادر المعتمدة.

هيئة النسناس ومعيشتهم: يقتصر العرض على ما تنقله المصادر المستخدمة، مع الفصل بين الرواية والوصف المعجمي والحكاية الشعبية. وعدم ورود تفصيل في هذه المادة لا يعني نفي وجوده في التراث كله.

المقارنة بالأنواع المنقرضة: تعرض المعطيات العلمية من مراجعها المتخصصة، ولا تقدم تسمية النياندرتال أو غيره تفسيراً ثابتاً للنسناس ما دامت المادة المنقولة لا تنص على هذا الربط. غاية هذا الجمع أن يقرب للقارئ ما تفرق في بطون الكتب، وأن يتيح له معرفة المصدر وصاحب القول. ويكتمل الكتاب بأمانة أداء هذه المهمة، مع اعتماد تحقيق العلماء ونقل اختلافهم حيث ورد، وإبقاء ما لم تفصله المصادر في حدود ما نعرفه عنها.

المصادر والمراجع

هذه قائمة المصادر المستخدمة فعلياً في بناء الكتاب. تميز الإحالات بين الصفحات المصورة والنصوص الإلكترونية والنقول عن الكتب؛ وتذكر بيانات الطبعة حيث أمكن التحقق منها. وقد يختلف موضع الخبر وترقيم صفحاته من طبعة إلى أخرى، لذلك يذكر الباب ورقم الحديث أيضاً حيث توفر ذلك.

أولاً: القرآن الكريم

القرآن الكريم: البقرة ٣٠؛ النساء ١؛ الأنعام ١٣٣؛ هود ٧؛ إبراهيم ٤٨؛ الحجر ٢٧؛ النحل ٨؛ الإسراء ٣٦؛ الكهف ٥٠؛ الأنبياء ٣٠؛ النور ٤٥؛ العنكبوت ٢٠؛ الشورى ٢٩؛ ق ١٥؛ الواقعة ٦٠-٦٢؛ الطلاق ١٢؛ الإنسان ١. وإحالات سياقية إلى فصلت ٩-١٢، والسجدة ٧-٩، وص ٧١-٧٦.

ثانياً: مصادر الروايات ونقولها

علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج ١؛ تصحيح وتعليق وتقديم السيد طيب الموسوي الجزائري؛ منشورات مكتبة الهدى، مطبعة النجف، ١٣٨٦ هـ كما في صفحة العنوان. قوبلت ص ٣٦-٣٨ من المصورة المحفوظة بمكتبة جامعة نيويورك، مع نقلي البرهان والبحار. الرمز: [١].

محمد بن علي بن بابويه الصدوق، علل الشرائع، ج ١؛ تصحيح وتعليق السيد فضل الله الطباطبائي اليزدي، الطبعة الثانية، المطبعة العلمية، قم؛ الباب ٩٦، ح ١، المقاطع المقروءة ص ١٣٩-١٤٢. وقورنت بص ١٠٤-١٠٥ من نص رقي يذكر منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٥ هـ/١٩٦٦ م، وينقل بحار الأنوار، ج ٦٠ ص ٨٢-٨٣، ح ٣٨. الرمز: [٢].

الصدوق، التوحيد: تصحيح وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين بقم؛ باب ٣٨ «ذكر عظمة الله جل جلاله»، عنوانه ص ٢٧٥، والخبر ح ٢ ص ٢٧٧. قرئ النص الإلكتروني وقوبل طريقه وموضع العدد بشاهد الخصال المصور. الرمز: [٣].

الصدوق، الخصال: تقديم السيد محمد مهدي السيد حسن الخراسان، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م؛ ص ٣٢٨، باب السبعة، ح ٤٥ [٤]؛ وص ٦١٥، أبواب ما بعد الألف، ح ٥٤ [٣]؛ وص ٦٠٢، ح ١٤، خبر اثني عشر ألف عالم [٦]. قوبلت صور المواضع من النسخة المتاحة في المجموعات العربية على الإنترنت. وتختلف هذه الصفحات عن ترقيم طبعات أخرى.

محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي: تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاقي، مؤسسة الأعلي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى المحققة، ١٤١١ هـ/١٩٩١ م. المواضع المصورة: ج ٢ ص ٢٥٥، ح ٥٧ [٤]؛ وج ١ ص ٤٩-٥٠، ح ٨ [٥]؛ وج ١ ص ٧، تصدير محمد حسين الطباطبائي وبيانه اختصار الأسانيد. وتقابل موضعي الخبرين الإحالتان الإلكترونيتان السابقتان ج ٢ ص ٢٣٨، وج ١ ص ٣١-٣٢.

السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن: ج ١، ص ١٧١، الخبر ٣٨٦/٥، نقل تفسير القمي. مصدر وسيط للمقابلة، لا طريق مستقل بمجرد تكرار النص.

محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار: ج ٦٠، ص ٨٢-٨٣، ح ٣٨؛ وص ٢٧٣، ح ١٦١؛ وج ١١، ص ١٠٦، موضع البيان والحاشية المتعلقة بلفظ النسناس. يميز في الإحالات بين النقل والبيان وحاشية الطبعة.

الكليني، الكافي، دار الحديث، ج ١٥ ص ٢٣٥، ح ١٤٨٨٣/٦٨، مع إحالة الحاشية إلى ح ١٤٩٥٧؛ نص إلكتروني مقروء لخبر الماء [٧]. وقرئ خبر الناس وأشباههم والنسناس في نص الكافي الإلكتروني، ج ٨، ح ٣٣٩؛ وقورن بنقل بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، ج ٢٤ ص ٩٥-٩٦، باب ٣٥، ح ٢، الذي يحيل إلى روضة الكافي ص ٢٤٤-٢٤٥ [٨]. لا يعامل النقل المتكرر بوصفه طريقاً مستقلاً.

المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، دار الكتب الإسلامية، ج ٢٦ ص ٢١٠، شرح الحديث ٣٣٩: حكمه «مجهول». قرئ النص الإلكتروني للشرح في مكتبة مدرسة الفقاهة؛ ولا تدعي الإحالة مقابلة صورة الطبعة. الرمز: [٨].

جعفر بن محمد بن قولويه، كامل الزيارات، تحقيق جواد القوي و لجنة التحقيق، مؤسسة نشر الفقاهة، ص ٦٣، ح ٤/٤٨؛ نص إلكتروني مقروء لتعيين موضع محمد بن عبد الله بن هلال في السند، مع قراءة مقدمة المصنف في النص الإلكتروني. هذه إحالة رجالية مقارنة تتصل بمناقشة [٤]، وليست مصدراً آخر لخبر العوالم السبعة.

ثالثاً: التفسير والرجال واللغة

[١م] محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: تفسير النساء ١، في عمر النوع الإنساني والإنسان الأولي و انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه؛ وتفسير الحجر ٢٦-٤٨، في المقابلة بين خلق الإنسان والجان ومعنى «من قبل». وتفسير الأنعام ١٣٣ في الغنى والرحمة والاستخلاف. استعمل بوصفه بحثاً تفسيرياً، لا مصدراً للمعرفة الأحفورية الحالية.

[٢م] المجلسي، بحار الأنوار: ج ١١، ص ١٠٦؛ بيان اللفظ والحاشية المجاورة، مع عدم نسبة كلام المحشي إلى الإمام أو إلى صاحب الكتاب بلا تعيين.

[٣م] مراجع أقوال العلماء في الرواة: النجاشي، فهرست أسماء مصنفى الشيعة المعروف برجال النجاشي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم: ص ٢٨٧، الترجمة ٧٦٥، عمرو بن شمير؛ وص ٢٩٠، الترجمة ٧٧٧، عمرو بن أبي المقدام. والخوئي، معجم رجال الحديث: ج ٤ ص ٣٠٧، الترجمة ١٩٨٣، ثابت الحذاء؛ وج ١٤ ص ٨٠-٨٣، الترجمة ٨٨٦٣، عمرو بن أبي المقدام، ولا سيما الحكم والتفريق بين الراوي والطريق في ص ٨٢؛ وج ١٤ ص ١١٦، الترجمة ٨٩٣٨، عمرو بن شمير؛ وج ١٧ ص ٢٦٦-٢٦٧، الترجمة ١١١٥٣، محمد بن عبد الله بن هلال؛ وج ١٤ ص ٢٠٠-٢٠١، الترجمة ٩١٨٦، عيسى بن حمزة. قرئت

المواضع إلكترونياً، وتُذكر أرقام التراجم لضبط الإحالة عند اختلاف ترتيب المجلدات في واجهات المواقع. فصل نقل النجاشي عن تعليق الخوئي، والحكم على الراوي عن الحكم على طريق معين.

وتتمّة [م٣]: أبو القاسم الخوئي، صراط النجاة، مع تعليقات الميرزا جواد التبريزي، ج ٢ ص ٤٥٧، مسائل رجالية، السؤال ١٤٢٧. الاعتماد هنا على جواب الخوئي نفسه في نطاق توثيق رجال كامل الزيارات؛ قُريء نصه الإلكتروني، ولم تجر مقابلة صورة هذه الطبعة. تُنسب النتيجة إلى صاحب الجواب ولا تعمم على سائر الآراء.

[م٤] ابن منظور، لسان العرب: مادة «نسس». مصدر لتعدد الاستعمال اللغوي والحكايات المرتبطة باللفظ، لا لإثبات صحة كل حكاية.

ورد اسم الصحاح للجوهري والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ضمن النقول والشروح، ولم يبين عليهما هنا تحقيق مستقل لطبعاتهما؛ لذلك لا يوهم إدراجهما أنهما قرئتا كاملين أو قوبلت جميع نصوصهما.

رابعاً: مراجع المقارنة العلمية

[م٥] مؤسسة سميثسونيان، المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي، برنامج أصول الإنسان: مادة «الأحافير البشرية» (Human Fossils). استعملت لشرح طبيعة السجل الأحفوري وتفرع تاريخ التطور البشري.

[م٦] المؤسسة نفسها، مادة «الإنسان العاقل» (Homo sapiens). استعملت للتعريف بالنوع والتقدير التقريبي لظهوره، دون ربطه تعسفاً بتسمية روائية.

[م٧] مؤسسة سميثسونيان، برنامج أصول الإنسان، مادة Homo neanderthalensis: التعريف بالنوع ونطاقه الزمني والجغرافي وبعض خصائصه وآثاره.

[م٨] متحف التاريخ الطبيعي، لندن، مادة Who were the Neanderthals?: مناقشة القرابة والسلوك وتفاوت الشواهد وأسباب الاختفاء.

[م٩] جامعة كامبريدج، فريق بحث شنيذر، عرض Revealed: face of 75,000-year-old female Neanderthal from cave where species buried their dead، ٢٠٢٤؛ مع مقال Pomeroy وزملائها، New Neanderthal remains associated with the 'flower burial' at Shanidar، Cave، Antiquity، ٩٤ (٣٧٣)، ٢٠٢٠، ص ١١-٢٦؛ معرف DOI: 10.15184/aqy.2019.207. اقتصر الاستعمال على وصف الموقع ومسألة وضع البقايا، دون تعيين عقيدة لأصحابها.

[م١٠] Hunt, Pomeroy, Reynolds, Tilby & Barker، Shanidar et ses fleurs? Reflections on the palynology of the Neanderthal 'Flower Burial' hypothesis، Journal of Archaeological Science، ٢٠٢٣، DOI: 10.1016/j.jas.2023.105822. قُريء ملخص البحث في مستودع جامعة كامبريدج، واستعمل لفصل تفسير حبوب اللقاح عن مسألة وضع الأجساد.

- [١١م] معهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا التطورية، New timeline for Neandertal gene flow، event ١٢ ديسمبر ٢٠٢٤؛ عرض لبحث Iasi وزملائه Neanderthal ancestry through time: Insights from genomes of ancient and present-day humans، Science، ٢٠٢٤. اعتمد العرض المؤسسي في تقدير الأصل الوراثي وفترة الامتزاج.
- [١٢م] مؤسسة سميثسونيان، برنامج أصول الإنسان، Ancient DNA and Neanderthals: طبيعة الشاهد الوراثي والامتزاج وتاريخ الهجرات.
- [١٣م] جمعية ماكس بلانك، Neither Neandertal nor modern human، ٢٣ ديسمبر ٢٠١٠؛ عرض بحث الدينيسوفان وقرابتهم والمساهمة الوراثية في أسلاف بعض سكان أوقيانوسيا.
- [١٤م] هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية، Powell Expedition—Geologic Time. Then and Now، ٢ أغسطس ٢٠١٩؛ عمر الأرض وأسس التأريخ الإشعاعي.
- [١٥م] متحف التاريخ الطبيعي، لندن، Sam Rae و Lisa Hendry، What killed the dinosaurs؟: انقراض الديناصورات غير الطيرية، وبقاء الطيور، وشواهد اصطدام الكويكب.
- [١٦م] مؤسسة سميثسونيان، مادة Homo erectus؛ استعملت حدود العمر التقريبية وتنوع الشواهد.
- [١٧م] المؤسسة نفسها، مادة Homo floresiensis؛ مع التمييز بين عمر الأحافير وعمر الأدوات، وعدم اعتماد العمر القديم الباقي في وصف صورة بالموقع.
- [١٨م] المؤسسة نفسها، مادة Homo naledi؛ استعمل تأريخ البقايا والموقف غير المحسوم من موضع النوع التفصيلي في شجرة القرابة.
- [١٩م] مؤسسة سميثسونيان، المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي، برنامج أصول الإنسان، مادة Dating؛ إعداد Kim Foecke بمساهمات Kevin Takashita-Bynum، وتحرير Rick Potts و Briana Pobiner و Jennifer Clark. استعملت لشرح طرق تأريخ الطبقات والأحافير وحدود الكربون المشع.
- [٢٠م] Hayley Dunning، متحف التاريخ الطبيعي، لندن، The origin of life on Earth: From basic chemicals to complex organisms. استعملت للشواهد على الحياة المبكرة والستروماتوليت والتميز بين بداية الحياة وتنوعها.
- هذه المراجع العلمية للتعريف والمقارنة، وليست مصادر لتحقيق الحديث. تاريخ الاطلاع الإلكتروني الفعلي على المواد المستعملة في المراجعة: ١٨ أكتوبر ٢٠٢٦م؛ وهو مستقل عن تاريخ النسخة المعتمد في صفحة العنوان. وتراجع المعلومات القابلة للتحديث عند إعداد طبعة لاحقة.

الفهارس

تحيل الفهارس المتخصصة إلى الفصول والملاحق التي تعالج المسائل، ويبين فهرس المحتويات في بداية الكتاب صفحات العناوين. وهذه كشافات انتقائية لمواضع المعالجة الرئيسة، تعين القارئ على متابعة الموضوع والعودة إلى شواهد.

الفهرس الأول: الآيات

البقرة، الآية ٣٠: الفصل الثاني؛ الفصل الثالث والعشرون؛ الملحق الأول.
النساء، الآية ١؛ الأنعام، الآية ١٣٣: الفصل الثاني؛ الملحق الأول.
هود، الآية ٧؛ إبراهيم، الآية ٤٨؛ الحجر، الآية ٢٧؛ النحل، الآية ٨: الفصل الثاني؛ الملحق الأول.
الإسراء، الآية ٣٦: منهج الكتاب؛ الملحق الأول.
الكهف، الآية ٥٠؛ الأنبياء، الآية ٣٠؛ النور، الآية ٤٥: الفصل الثاني؛ الملحق الأول.
العنكبوت، الآية ٢٠: الفصل الأول؛ الملحق الأول.
السجدة، الآيات ٧-٩؛ ص، الآيات ٧١-٧٦؛ فصلت، الآيات ٩-١٢: إحالات سياقية في الفصل الثاني.
الشورى، الآية ٢٩: الفصل الثاني؛ الملحق الأول.
ق، الآية ١٥: الفصل الثاني؛ الفصل السادس؛ الملحق الأول.
الواقعة، الآيات ٦٠-٦٢؛ الطلاق، الآية ١٢؛ الإنسان، الآية ١: الفصل الثاني؛ الملحق الأول.

الفهرس الثاني: الأخبار والروايات

خبر النسناس بطريق القمي [١]: الفصل الحادي عشر؛ الفصل السادس عشر؛ الملحقان الثاني والرابع.
خبر النسناس بطريق العلل [٢]: الفصل الحادي عشر؛ الفصل السادس عشر؛ الملحقان الثاني والرابع.
خبر ألف ألف عالم وآدم [٣]: الفصل السادس؛ الفصل التاسع؛ الملحق الثاني.
خبر السبعة [٤]: الفصل السابع؛ الفصل الثامن؛ الملحق الثاني.
خبر الخلق غير المسمى [٥]: الفصل الثامن؛ الفصل التاسع؛ الملحق الثاني.
موازنة الأخبار وحدود الجمع: الفصول السابع عشر والحادي والعشرون؛ الملحق الخامس.
خبر اثني عشر ألف عالم [٦]: الفصل الخامس؛ الملحق الثاني.
خبر الماء وبدء الخلق [٧]: الفصل الخامس؛ الملحق الثاني.
خبر الناس وأشباه الناس والنسناس [٨]: الفصل العاشر؛ الملحق الثاني.

الفهرس الثالث: الأعلام

آدم عليه السلام: الفصول الثاني والثالث والسادس والسابع والثامن عشر والثالث والعشرون.
أمير المؤمنين علي عليه السلام: الفصلان العاشر والحادي عشر؛ الملحق الثاني، [١ر، ٢ر، ٨ر].
أبو جعفر الباقر عليه السلام: الفصول الخامس والسادس والسابع والحادي عشر؛ الملحق الثاني، [١ر-٤ر، ٧ر].

أبو عبد الله الصادق عليه السلام: الفصلان الخامس والثامن؛ الملحق الثاني، [٥ر، ٦ر].
الإمام الحسين والإمام علي بن الحسين عليهما السلام: الفصل العاشر؛ الملحق الثاني، [٨ر].
جابر بن يزيد: الملحق الثاني، طرق [١ر-٣ر].

محمد بن مسلم: الفصلان الخامس والسابع؛ الملحق الثاني، [٤ر، ٧ر].
عمرو بن شمر: الفصلان الرابع والسادس؛ الملحق الثاني، [٣ر].
محمد بن عبد الله بن هلال: الفصل السابع؛ الملحق الثاني، [٤ر]؛ قائمة المراجع، [٣م].
عيسى بن حمزة: الفصلان الثامن والتاسع؛ الملحق الثاني، [٥ر]؛ قائمة المراجع، [٣م].
عمرو بن أبي المقدام وثابت الحذاء: الفصلان الرابع والحادي عشر؛ الملحقان الثاني والرابع؛ قائمة المراجع، [٣م].

الصدوق والعياشي والقمي: الفصل الرابع؛ الملحق الثاني؛ قائمة المصادر.
البحراني والمجلسي: الفصول الرابع والعاشر والحادي عشر؛ الملحق الثاني؛ قائمة المصادر.
الطباطبائي: الفصلان الثاني والثامن؛ قائمة المصادر، [١م].
الختوي والنجاشي: الفصول الرابع والسابع والثامن والحادي عشر؛ قائمة المصادر، [٣م].
ابن منظور: الفصل العاشر؛ قائمة المصادر، [٤م].

الفهرس الرابع: الكتب

القرآن الكريم: الفصل الثاني؛ الملحق الأول.
تفسير القمي وعلل الشرائع: الفصل الحادي عشر؛ الملحق الثاني.
التوحيد: الفصل السادس؛ الملحق الثاني.
الخصال وتفسير العياشي: الفصلان السابع والثامن؛ الملحق الثاني.
البرهان وبحار الأنوار: الفصلان الرابع والحادي عشر؛ الملحق الرابع.
الميزان: الفصلان الثاني والثامن.

معجم رجال الحديث ورجال النجاشي: الفصول الرابع والسابع والثامن والحادي عشر؛ قائمة المراجع، [م٣].
لسان العرب: الفصل العاشر؛ الفصل العشرون.
الكافي: الفصلان الخامس والعاشر؛ الملحق الثاني، [٧، ٨]، مع بيان موضع القراءة الإلكترونية والنقل المقارن.

مرآة العقول: الفصل العاشر؛ الملحق الثاني، [٨]؛ قائمة المصادر.
كامل الزيارات: الفصل السابع؛ الملحق الثاني، [٤]؛ قائمة المصادر.
صراط النجاة: الفصل السابع؛ الملحقان الثاني والسابع؛ قائمة المراجع، [م٣].

الفهرس الخامس: المصطلحات

آدم والبشر والإنسان والعالم: الفصل الثالث؛ الفصل السابع عشر؛ الملحق السادس.
النسناس وتعدد الاستعمال: الفصل العاشر؛ الفصل العشرون؛ الملحق السادس.
السند والمتن والتخريج: الفصل الرابع؛ الملحقان الثالث والسادس.
الإبانة والإبادة: الفصل السادس عشر؛ الملحق الرابع.
الإنسان العاقل: الفصل الثاني والعشرون؛ الملحق السادس.
النياندرتال والدينيسوفان والحمض النووي القديم والامتزاج الوراثي: الفصل الثاني والعشرون؛ الملحق السادس.
الإنسان المنتصب والفلوريبي والناليدي: الفصل الثاني والعشرون.
التأريخ النسبي والإشعاعي والكربون المشع والستروماتوليت: الفصل الثاني والعشرون؛ الملحق السادس.

الفهرس السادس: الموضوعات

حدود المعرفة: الفصل الأول؛ الفصل الرابع والعشرون.
تعدد العوالم والآدميين: الفصول الخامس إلى الثامن.
الزمن والأعداد: الفصل التاسع.
هيئة النسناس ومعيشتهم: الفصلان الثاني عشر والثالث عشر.
الإدراك والتكليف: الفصل الرابع عشر.
الفساد وسفك الدماء: الفصل الخامس عشر.
النهاية واحتمال البقاء: الفصل السادس عشر.
المعاصرة واللقاء والأنساب: الفصل الثامن عشر.

الأسماء المفقودة: الفصل التاسع عشر.
الحكاية الشعبية وكرامة الإنسان: الفصل العشرون.
العلم والأحافير والتطور: الفصل الثاني والعشرون.
شنيذر والدفن وتفسير حبوب اللقاح: الفصل الثاني والعشرون.
سابقة الجان ومشهد الملائكة وخلق السماوات والأرض: الفصل الثاني.
عمر الأرض والحياة المبكرة والديناصورات وحدود المقارنة: الفصل الثاني والعشرون.
طرق تأريخ الأحافير وحدود القياس: الفصل الثاني والعشرون.

الفهرس السابع: مسائل النقل والمصادر
ثبوت الخبر في الكتاب وثبوت صدوره: الفصل الرابع؛ الفصل الحادي والعشرون؛ الخاتمة.
تمييز الشرح من المتن والحاشية: الفصل الرابع؛ الفصل الثاني عشر؛ الملحق الرابع.
عدم استقلال النقل المتكرر: الفصل الحادي والعشرون؛ الملحق الثالث.
الفروق بين الطرق: الفصل الحادي عشر؛ الملحق الثاني.
القراءات «أبين» و«أبيد»: الفصل السادس عشر؛ الملحق الرابع.
منهج الجمع وحدود المادة المنقولة: منهج الكتاب؛ الملحقان الثالث والسابع.
التمييز بين التعدد والتعاقب: الفصل الخامس؛ الملحق الثاني، [٦].
هوية النسناس وحدود الربط بالنياندرتال: الفصلان العاشر والثاني والعشرون.

الفهرس الثامن: الملاحق
الملحق الأول: الآيات القرآنية المعتمدة.
الملحق الثاني: سجل النصوص الروائية المركزية.
الملحق الثالث: سجل النقل وحدوده.
الملحق الرابع: الفروق النصية المؤثرة.
الملحق الخامس: بطاقة المقارنة بين الأخبار.
الملحق السادس: معجم المصطلحات.
الملحق السابع: حدود المادة المنقولة.

حكاية الخلق قبل آدم

رحلة في النصوص وآفاق المعرفة

ما الذي تخبرنا به المصادر عن الخلق قبل آدم؟
وما حدود ما نعرفه عن النسناس والعوالم السابقة؟

أجمع في هذا الكتاب ما تفرّق في بطون كتب التفسير والحديث، وأرتّب الآيات والروايات وأقوال العلماء في خمسة أبواب؛ تبدأ بمفاتيح القراءة، وتمتد إلى أخبار العوالم والآدميين، وحكاية النسناس، وأسئلة المقارنة، ثم بداية عهد آدم عليه السلام.

وأعرض ما تقوله الدراسات المتخصصة عن النياندرتال والدينيسوفان وتاريخ الحياة، مع بيان حدود المقارنة بين الرواية والمعطيات العلمية، دون الجزم بمطابقة النسناس لأي نوع من البشر القدماء.

عملي النقل والتجميع ووضوح الشرح؛ أمّا السند والتحقيق فأعتمد فيهما على العلماء أصحاب المصادر ومحققها، وأنسب إليهم أقوالهم، لتبقى كلّ كلمة موصولة بمصدرها.

تأليف

السيد حسام زهاء مرتضى الصراف الحسيني

تاريخ التأليف: ٢ تموز ٢٠٢٣ م — ١٤ ذي الحجة ١٤٤٤ هـ

المراجعة والتحديث: ١٧ أبريل ٢٠٢٦ م — ٢٩ شوال ١٤٤٧ هـ

ISBN: 978-1-7642390-8-0

